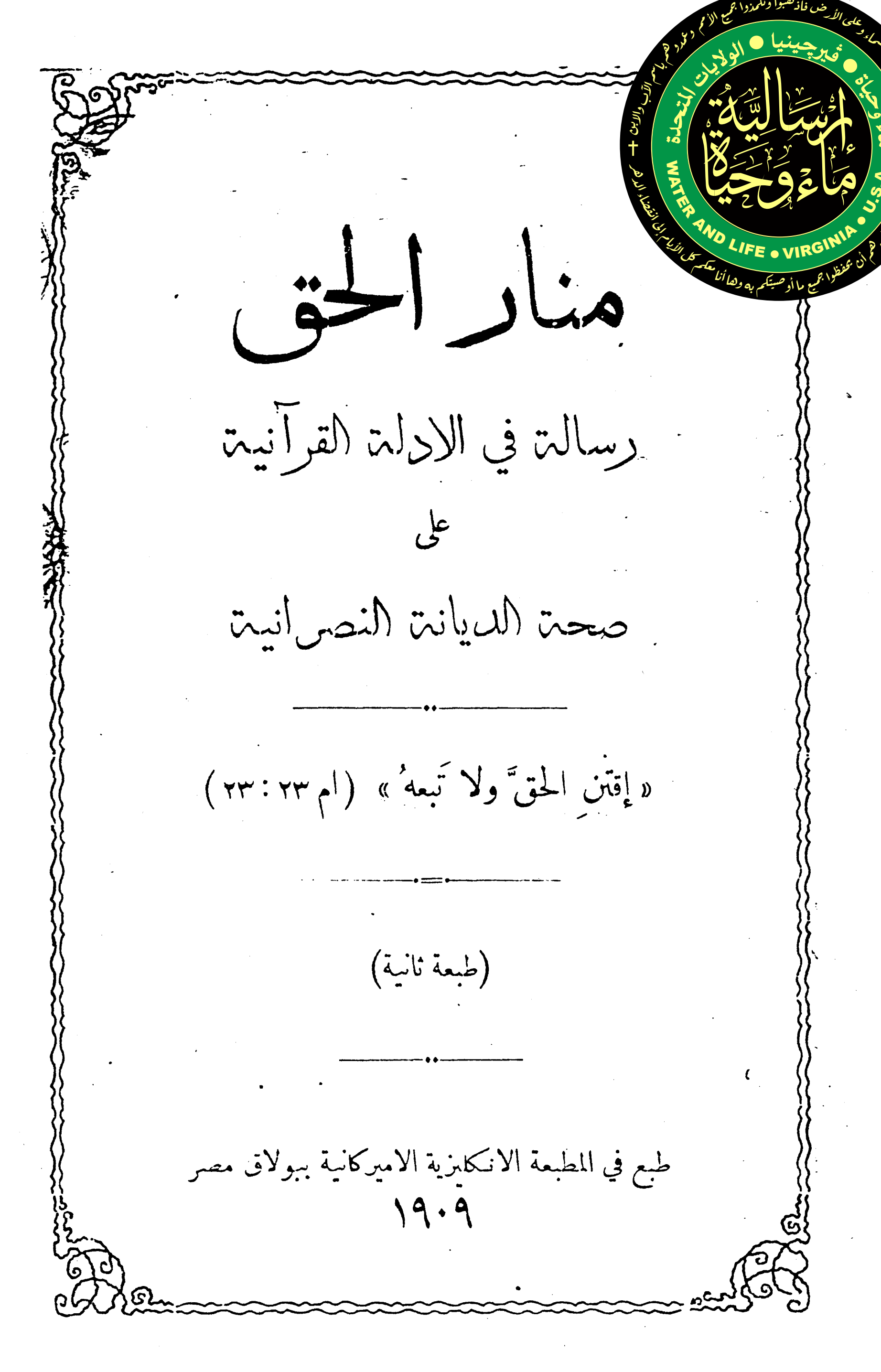


منار الحق

رسالة في الادلة القرآنية

على

صحة الديانة النصرانية

«إقتنِ الحقَّ ولا تَبعهُ» (ام ٢٣ : ٢٣)

(طبعة ثانية)

طبع في المطبعة الانكليزية الاميركانية ببولاق مصر
١٩٠٩



WATER AND LIFE ● VIRGINIA ● UNITED STATES

http://www.waterandlife.net



فاتحة

الحمد لله الذي انزل الكتاب نوراً وهدًى لاولي الالباب. واقامه بالبينات الراهنات حجة الله مدى الازمنة والاوقات

اما بعد فلما كان للمسلمين في قرآنهم من حسن الشهادة للتوراة والانجيل ودلالة سلامتهما من شائبة التحريف والتبديل والماع يعتبر الى لاهوت عيسى المسيح وكان اكثرهم يرمون الكتاب بالتحريف والتصحيف ولا يعتبرون المسيح الا كاحد الانبياء العظام او دون بعضهم في العظمة والمقام . كأنهم لم يتلوا من القرآن الا شذرات ولم تمر ابصارهم على كبار الآيات المبينة سلامة الكتاب والجاعلة المسيح موضوع العجب العجاب كنت كثيراً ما اتذمر من جراء ذلك في داخلي واطرح تضرعي امام الهي ان يعلن لهم حق ابنه بواسطة كتابهم مفكراً في الوسيلة الحسنى لذلك الى ان اتاح لي الله الاطلاع على اشهر كتبهم الدينية بعد القرآن ككتب السنة (الحديث) وكتاب السيرة النبوية وكتاب احياء علوم الدين للامام الغزالي وتفسير القرآن للامام الفخر الرازي وتفسيره للامام البيضاوي والجلالين فاخذت في دراستها واستخلاص زبدة خلاصتها ثم اخذت اصرف قصارى جهدي بجمع الآيات القرآنية الدالة على صحة الديانة المسيحية مع خلاصة تأويلها في كتب الائمة المذكورين آنفاً ولما تيسر لي بعونه تعالى نيل المطلوب نسقتها على المنوال المدرج في هذا المؤلف مع تقييد ملاحظات وذيول للابواب وخاتمة فجاء بحوله تعالى كتاباً صغير الحجم كبير الفائدة راجياً من لا يرجى سواه ان يفيد به من يقف عليه ويتروّاه. ولما كنت لا اجهل قصر باعي في فن الانشاء والتأليف فلا اعتقد خلوّه من الضعف والركاكة غير ان املي بحلم القارئ النبيل ان يسبل ذيل المعذرة على ما يرى فيه من الوهن والتقصير ويصلح ما يراه فيه من الخطاء والنسيان كما هو من شيم الكرام فان العصمة لله والسلام

الباب الاول

في الآيات المبينة ان محمداً ما ارسل بالآيات المعجزات وانه لم يأت بآية او اعجوبة

« وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » (سورة الانعام آية ٣٧)

(التفسير) قالوا ان هذا النوع الرابع من شبهات منكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لانهم قالوا لو كان رسولاً من عند الله أفما كان انزل عليه آية قاهرة ومعجزة باهرة؟ ويروى ان بعض الملحدة طعن فقال لو كان محمد قد أتى بأية معجزة ما صح ان يقول اولئك الكفار لولا نزل عليه آية ولا قال ان الله قادر على ان ينزل آية والجواب عنه ان القرآن معجزة قاهرة بدليل انه صلى الله عليه وسلم تحدّاهم فعجزوا عن معارضته وذلك يدل على كونه معجزاً. بقي ان يقال فاذا كان الامر كذلك فكيف قالوا لولا نزل عليه آية من ربه فيأتي الامام بالجواب على ذلك ونذكر بعضاً من وجوهه ملخصاً

(الوجه الاول) لعل القوم طعنوا في كون القرآن معجزاً . . . فقالوا انه من جنس الكتب والكتاب لا يكون من جنس المعجزات كما في التوراة والزبور والانجيل . ولاجل هذه الشبهة طلبوا المعجزة

(الوجه الثاني) انهم طلبوا معجزات قاهرة من جنس معجزات سائر الانبياء مثل فلق البحر واظلال الجبل واحياء الموتى فاجاب الله عن سؤالهم « ولكن اكثرهم لا يعلمون » واختلفوا في تفسير هذه الكلمة . زعم السنية ان المراد لما انزل الله القرآن آية باهرة ومعجزة قاهرة كان طلب الزيادة جارياً مجرى التحكم والتعنت الباطل والله سبحانه له الحكم والامر فان شاء فعل وان شاء لم يفعل او على وفق المصلحة على قول المعتزلة

(الوجه الثالث) هو انه لما ظهرت المعجزة القاهرة والدلائل الباهرة الكافية لم يبق لهم عذر ولا علة فبعد ذلك لو اجابهم الله تعالى في ذلك الاقتراح فلعلهم يقترحون ثانية وثالثاً ورابعاً وهكذا الى ما لا غاية له وذلك يفضي الى ان لا يستقر الدليل ولا تتم الحجة فوجب في اول هذا الامر سد هذا الباب والاكتفاء بما سبق من المعجزة القاهرة والدلالة الباهرة

(الوجه الرابع) انه لو اعطاهم ما طلبوا من المعجزات القاهرة فلو لم يؤمنوا عند ظهورها لاستحقوا عذاب الاستئصال فاقتضت رحمة الله صونهم من هذا البلاء فما اعطاهم هذا المطلوب رحمة منه تعالى وان كانوا لا يعلمون (رازي مجلد رابع وجه ٥٢ و٥٤)

(التفسير) اي مما اقترحوه وان الله قادر على ان ينزل مما اقترحوه غير ان انزالها يستجلب عليهم البلاء وان لهم فيما انزل مندوحة عن غيره (بيضاوي مجلد اول وجه ٢٧٧)

(ملاحظة) لا يلام قريش بعدل على اقتراحهم على محمد آية كآيات الانبياء السالفين والقول ان الله قادر على ان ينزل آية ليس بحجة ويمكنهم ان يجيبوا نعم ان الله قادر على انزال الآيات وبيان قدرته على انزالها انه انزلها على انبيائه السالفين كموسى وعيسى ولو كان محمد كواحد منهم لساواه بهم من هذا القبيل

والقوم لو رأوا القرآن معجزة لاكتفوا به عن اقتراح آية ولو كان كذلك لما كان الجواب في الآية « قل ان الله قادر على ان ينزل آية » بل قل ان القرآن لهم آية والعرب لا يجهلون ان لبعض بلغائهم كامرئ القيس والنابغة وقس الفصاحة من الخطب والقصائد ما اعجزت الآخرين عن الاتيان بمثلها فهل اعتبروها آيات واذا كان القرآن معجزة قاهرة مثل احياء الميت وفلق البحر فما المانع من إصحابه بآية من جنس آيات موسى وعيسى وماذا يضر ذلك بحكمة الله. والقول انه لو اجابهم الله الى طلبهم فلعلهم يقترحون ثانياً وثالثاً ورابعاً انما هو من باب الظن فلا يؤخذ به ويقال بمقابلة ذلك

لعلهم كانوا اكتفوا واقتنعوا لان مطلوبهم اية كأنهم قالوا كيف نقبل ادعاء رجل هكذا بالنبوة والرسالة بلا آية تبرهن صحة دعواه كما برهن انبياء اسرائيل لقومهم صحة دعواهم بالآيات التي اوتوها أفلا يأتينا محمد بواحدة منها لنؤمن به . والقول ان هذا الطالب من العرب كان جارياً مجرى التحكم والتعنت الباطل لا يرى من الانصاف بشيء ومحمد جاءهم بدين يختلف عن دين بني اسرائيل ودين النصارى ودين آبائهم فما عدم قبولهم اياه بلا آيات قاهرة كآيات الانبياء المتقدمين الا دليل حذقهم ونباهتهم وخلوص نياتهم ومسئلة استحقاق عذاب الاستئصال لغير المؤمنين بالآيات ندع النظر فيها لمحل اخر اولى به من هذا

« وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (سورة الاعراف آية ٢٠٢)

(التفسير) خلاصة التفسير ان العرب اقترحوا على محمد اية من ربه تثبت ارساليته منه تعالى فامر ان يجيب بكلمة « قل انما اتبع ما يوحى اليّ من ربي » الى آخر الآية لان عدم اتيانه بآية معجزة كما اقترحوا عليه لا يقدح في الفرض لان ظهور القران على وفق دعواه معجزة بالغة قاهرة فاذا ظهرت هذه المعجزة الواحدة كانت كافية في تصحيح النبوة فكان طلب الزيادة من باب التعنت (رازي مجلد ٤ وجه ٤٩٩ و٥٠٠)

(ملاحظة) اذا كان العرب اقترحوا على محمد اية تثبت ارساليته من الله فلا ريب ان ذلك كان منهم عن اخلاص ليكونوا على يقين بانه رسول من الله وهذا يظهر انهم ليس فقط ما اعتبروا القرآن آية معجزة بل رأوا احتياجه الى آية تثبت انزاله من عند الله فباعتبار ذلك لا يقع على القوم شيء من التعنت ولاحظ انهم هناك قالوا في غياب محمد « لولا نزل عليه آية من

ربه » وهنا طلبوا منه مواجهة عمل آية بقولهم اجتبيتها فكأنهم غب ان تحدث بعضهم مع بعض في امر دعوى محمد وقالوا لو انزل الله عليه آية كآيات انبياء بني اسرائيل لكنا نقبل دعواه بفرح ولكننا بدون ذلك لا نقدر ان نصدقه وقالوا هلم نطلب منه ذلك فاتوا وسألوه آية قائلين لولا اجتبيتها اي لو عملتها لكنا نؤمن بك كنبي الله ورسوله الينا فما كان جوابه لهم الا قل انما أتبع ما يوحى اليّ من ربي فهل ذلك بجواب مقنع لاولئك السائلين اياه آية برهاناً على ما يدعي انه وحي الله اليه . كلا

« وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ » (سورة الرعد آية ٨)

(التفسير) خلاصته ان الرسول عليه السلام منذر لقومه مبين لهم ولكل قوم من قبله هادٍ ومنذر وداع وانه تعالى سوى بين الكل في اظهار المعجزة الا انه لكل قوم طريق مخصوص لاجله استحق التخصيص بتلك المعجزة المخصوصة فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السلام هو السحر جعل معجزته ما كان من جنس تلك ولما كان الغالب في ايام عيسى عليه السلام الطب جعل معجزته ما كان من جنس تلك الطريقة وهو احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص ولما كان الغالب في ايام الرسول صلى الله عليه وسلم الفصاحة والبلاغة جعل معجزته ما كان لائقاً بذلك الزمان وهو فصاحة القرآن فلما كان العرب لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع كونها أليق بطباعهم فبأن لا يؤمنوا عند اظهار سائر المعجزات اولى فهذا الذي قرره القاضي وهو الوجه الصحيح الذي يبقى الكلام معه منتظماً وكلمة انما انت منذر المعنى ليس لك الا الانذار أما الهداية فمن الله تعالى (رازي مجلد ٥ وجه ٢٧٠ و٢٧١)

وتفسيرها من البيضاوي ٠ هم يقولون ذلك لعدم اعتدادهم بالآيات المنزلة

عليه واقتراحاً لنحو ما اوتي موسى وعيسى عليهما السلام « انما انت منذر » مرسل للانذار كغيرك من الرسل وما عليك الا الاتيـان بما تصح به نبوتك من جنس المعجزات لا بما يقترح عليك «ولكل قوم هاد» يهديهم الى الحق ويدعوهم الى الصواب . . . على انه تعالى قادر على انزال ما اقترحوه وانما لم ينزل لعلمه بان اقتراحهم للعناد دون الاسترشاد(بيضاوي مجلد اول وجه ٦١٦)

(ملاحظة) انك ترى بين الآية وتأويلها بوناً عظيماً فانه ليس في الآية الماع الى كون القرآن معجزة ابداً انما قال أنت منذر ولكل قوم هاد أي ليس لك الاّ الانذار كما ترى في تفسير الرازي وأما القول بان الله سوى بين الكل في اظهار المعجزة الى آخر القول فهو قول باطل من وجهين (الاول) ان من آيات موسى مالا يقرب الى طريقة السحر كضربة ابكار المصريين واغراق جيشهم في البحر وتفجر الماء من صخر وكذا من آيات المسيح ما لا يقرب البتة الى طريقة الطب كانزال مائدة من السماء وخلقه طيراً من طين حسب نص القرآن واشباعه من بعض الارغفة آلافاً ومشيه على الماء حسب نص الانجيل ولقد توالى على موسى وعيسى أنبياء وحواريون كيشوع وايليا واليشع ورسل المسيح صنعوا آيات عديدة كآيات موسى وعيسى (الثاني) لم تكن الفصاحـة والبلاغة خاصة بالعرب دون غيرهم من الامم بل كل امة فصيحة بليغة في لغتها الخاصة ولا سيما اليهود واليونان فانهما كانتا غاية في الفصاحـة والبلاغة كما هو ظاهر من مؤلفاتهم وخطبهم وأشعارهم ولما لم يكن العرب في زمن محمد خالين من صناعتي السحر والطب وكانوا على جانب عظيم من النباهة وسرعة الخاطر كانت حالتهم وطباعهم تستدعي صنع معجزات من نبي قام بينهم اثباتاً لدعواه كما كانت حالة المصريين والاسرائيليين تستدعي ذلك

واذا كانت ديانتا موسى وعيسى أثبتتا بالآيات والعجائب فبالاولى لمن قام وادعى النبوة وجاء بدين يخالفهما بدعوى انه ناسخ لما قبله من الاديان ان يثبت دعواه ودينه بآيات تفوق آيات ذينك النبيين والا فأي لوم وحرج على من لا يصدقه ويقبل ما جاء به

«وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ»

(بني اسرائيل آية ٦١)

(التفسير) ملخصه ان كفار قريش قالوا لولا يأتينا بآية كما ارسل الاولون وعن سعيد بن جبير ان القوم قالوا لمحمد انك تزعم انه كان قبلك انبياء فمنهم من سخرت لهم الريح ومنهم من كان يحيي الموتى فأتنا بشيء من هذه المعجزات فاجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله « وما منعنا ان نرسل بالآيات الاّ ان كذب بها الاولون » المعنى انه تعالى لو اظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم فحينئذ يصيرون مستحقين عذاب الاستئصال لكن عذاب الاستئصال على هذه الامة غير جائز لان الله تعالى علم ان فيهم من سيؤمن او يؤمن من اولادهم فلهذا السبب ما اجابهم الله تعالى الى مطلوبهم (رازي مجلد ٥ وجه ٦٠٧)

وتفسير الآية من الامام البيضاوي هو وما صرفنا عن ارسال الآيات التي اقترحتها قريش « الاّ ان كذب بها الاولون » الاّ تكذيب الاولين الذين هم من امثالهم في الطبع كعاد وثمود وانها لو ارسلت لكذبوها تكذيب اولئك واستوجبوا الاستئصال على ما قضت به سنتنا وقد قضينا ان لا نستأصلهم لان فيهم من يؤمن او يلد من يؤمن (بيضاوي مجلد ١ وجه ٧٠٢)

(ملاحظة) ان القول بعذاب الاستئصال لمن كذّب آيات المرسلين هو مدحوض من التوراة فان المصريين كذبوا بآيات الله التي صنعها عن يد موسى ولم يسمعوا له فلم يستأصلهم الله بل اهلك بعضاً منهم وابقى الآخرين . وبنو اسرائيل في ادوار كثيرة كذبوا انبياء الله وقتلوا منهم كثيراً ولم يستوجبوا بحكم الله عذاب الاستئصال بل هم لايزالون امة قائمة على رغم كل ما اجري لابادتهم . اما عاد وثمود فأمرهما من الحكايات غير الموثوق بها وهب انهما بادا كطسم وجديس فلعل ذلك من توغلهم في الشر ومزاولتهم الغزوات والحروب وانشاء الآثام وابادتها سنة الله في خلقه ينشي ويفني لحكمة منه وغاية لاندرك.

ولا يعلم عن امة قام فيها نبي من الله الاّ وصدقه بعضها لان آيات الرسالة كآية موسى وعيسى لاتذهب سدىً في الجميع واذا كان محمد وهو لم يأت بآية قط صدقه وآمن به سريعاً عدد عظيم من قريش ان لم نقل اكثرهم ولم يطل الحال حتى قبل دعواه اهل يثرب فكيف لو اجرى الله على يده آيات كآيات الانبياء المذكورين . واذا كان القوم صدقوه بلا آيات فاي محل للقول انه لم يرسل بالآيات لئلايكذب بها القوم فيستأصلوا لانهم اذا كانوا قبلوا الدعوى بدون آيات فكيف يكذبونها بالآيات . فلو ان محمداً بعد افراغ جهده بانذار القوم لم يصدقه منهم احد بل اصر جميعهم على عدم تصديق دعواه الاّ ان يأتيهم بآيات قاهرة كآيات موسى وعيسى ربما كان محل صغير للقول انهم لايؤمنون ولا بالآيات ولكن المعلوم ان زوجة محمد خديجة اعتبرته نبياً من الله ورسولا في بدء ادعائه ذلك ولم يلبث ان آمن به علي ابن عمه وابو بكر وعثمان وعمر وهلم جرا ولم تعبر سنون قليلة حتى آمن به جميع اهل مكة . واكثر الذين جعلوا الآيات شرطاً للايمان به واقترحوها عليه آمنوا به بدونها والله العليم عالم ان القوم سيؤمن اكثرهم بمحمد بدون آية وعليه فلا خوف على القوم من عدم الايمان بالآيات . وهل لله سبحانه ان يقول قولاً يجحف بعلمه ما سيكون . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

«وَقَالُوا لَوْلَا انزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ ٱللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ» (سورة العنكبوت آية ٤٩)

(التفسير) ملخصه ان القوم قالوا لمحمد انك تقول انه انزل اليك كتاب كما انزل الى موسى وعيسى وليس كذلك لان موسى أوتي تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند الله وانت ما اتيت شيئاً منها ثم ان الله تعالى أرشد نبيه الى أجوبة هذه الشبهة منها قوله انما الآيات عند الله وليس من شرط الرسالة الآية المعجزة . . . فانا الساعة رسول واما الآية فالله ان أراد ينزلها وان لم يرد لاينزلها ثم قوله وانما انا نذير مبين معناه ان الآية عند الله ينزلها او

لا ينزلها لاتتعلق بي ما انا الا نذير وليس لي عليه حكم بشيء (رازي مجلد ٦ وجه ٦٨١)

وتفسير البيضاوي لهذه الآية «وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه» مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى « قل انما الآيات عند الله » ينزلها كما يشأ لست املكها فاتيكم بما تقترحونه وانما أنا نذير مبين ليس من شأني الا الانذار وابانته (بيضاوي مجلد ٢ وجه ٢٣٦) وكذا تفسير الجلالين سوى انه يقول وفي قراءة آيات كناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى وانما أنا نذير مبين منذر بالنار اهل المعصية (جزء ثاني وجه ١٠٣)

(ملاحظة) لك من هذه الآية وغيرها من الائمة المذكورين ملاحظتان (الاولى)حذق القوم بطلبهم من محمد آيات تبرهن صحة دعواه بانزال كتاب اليه من الله كما برهن موسى وعيسى بالآيات على انزال الكتاب اليهما ومن لايرى عدالة هذا الطلب. والقول انما الآيات عند الله ليس هو جواباً لذلك السؤال وانظر ان العرب لم يروا في القرآن ما يبرهن انه من عند الله والا لاستغنوا بذلك عن شهادة الآيات (الثانية) ان محمداً ليس رجل آيات انما هو فقط منذر بالنار أهل المعاصي. حسناً. وهذا يستطيعه غير الانبياء والمرسلين من ذوي المحبة والغيرة. والقول وليس من شرط الرسالة الآية المعجزة لا محل له في هذا الصدد نعم ليس الآية شرط الرسالة في كل مرسل لان الله ارسل بعضاً بدون آية معجزة كأرميا ويونان لكنه ما أرسل مشترعاً بدون آيات قاهرة ومحمد ما جاء مشترعاً فقط بل ناسخاً للشرائع المثبتة بتلك الآيات فالمقام الذي ادعاه يوجب عليه بالاحرى الاتيان بآيات اكثر واعظم من آيات أولئك المشترعين

«أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ» (سورة العنكبوت آية ٥٠)

(التفسير) يعني ان كان انزال الآيات شرطاً فلا يشترط الا انزال آية وقد

انزل وهو القرآن فانه معجزة ظاهرة باقية وقوله او لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب وهذا الآن القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها (رازي مجلد ٦ وجه ٦٨١) والبيضاوي يفسر الآية ان القرآن آية غنية عما اقترحوه تدوم تلاوته عليهم متحدين به فلا يزال معهم آية ثابتة لاتضمحل (بيضاوي مجلد ٢ وجه ٢٣٦) وفي الجلالين أي القرآن فهو آية مستمرة لا انقضاء لها بخلاف ما ذكر من الآيات (جزء ثاني وجه ١٠٣)

(ملاحظة) ليس في آية اولم يكفهم . . . بيان كون القرآن معجزة وان القوم فضلاً عن انهم لم يعتبروه معجزة لم يعتقدوا انزاله من عند الله اذ قالوا ان هذا الا افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون (انظر سورة الفرقان آية ٥) وكثيرون من المسلمين يدحضون القول باعجازه وهاك ماورد في كتاب المواقف من قول القائلين باعجازه والقادحين به

أما القائلون باعجاز القرآن فقد قالوا من وجوه اعجازه كونه الى الدرجة العالية من البلاغة التي لم يعهد مثلها في تراكيب العرب

وهل رتب البلاغة متناهية فيه قال اختلفوا فيه ثم قال(صاحب الكتاب) والحق ان الموجود منها متناهية لانها واقعة في تلك الالفاظ الشريفة الدالة على المعاني الصحيحة ولا شك ان الموجود من تلك الالفاظ في اللغات متناه دون الممكن من مراتبها فانه غير متناه وقيل اعجاز القرآن اخباره عن الغيب نحو «وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين» اخبر عن غلبة الروم على الفرس فيما بين الثلاث الى التسع وقد وقع كما أخبر به

وقيل وجه اعجازه عدم اختلافه وتناقضه مع ما فيه من الطول والامتداد وتمسكوا في ذلك بقوله تعالى «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» وقيل وجه اعجازه بالصرفة على معنى ان العرب كانت قادرة على كلام مثل القرآن قبل البعثة لكن الله صرفهم عن معارضته . واختلف في كيفية الصرف زعمت المعتزلة صرفهم الله عنها مع قدرتهم عليها وذلك بأن صرف دواعيهم اليها مع كونهم مجبولين عليها. فهذا الصرف خارقاً للعادة فيكون معجزاً

وقال المرتضي من الشيعة بل صرفهم بأن سلبهم العلوم التي يحتاج اليهافي المعارضة فلم يبق لهم قدرة عليها «انتهى ملخصاً»

ملخص شبه القادحين في اعجازه

قالوا (اولا) وجه الاعجاز أن يكون بيناً لمن يستدل به عليه بحيث لايلحقه ريب واختلافكم فيه أي في وجه الاعجاز دليل على خفائه فكيف يستدل به على اعجازه

(ثانياً) ما ذكرتم من الوجوه لايصلح للاعجاز من ذلك البلاغة اما البلاغة فلوجوه

(الوجه الاول) اذا نظرنا الى ابلغ خطبة للخطباء أو أبلغ قصيدة للشعراء وقطعنا النظر عن الوزن والنظم المخصوص ثم قسناها على أقصر سورة من القرآن وأنتم تزعمون التحدي بها ويتناولها قوله تعالى «فأتوا بسورة من مثله» لم نجد الفرق بينهما في البلاغة بيناً بل ربما حكم للخطبة أو القصيدة التي قيس عليها ولابد في المعجز الذي يستدل به على صدق المدعي من ظهور التفاوت بينه وبين مايقاس هو عليه الى حد تنتفي معه الريبة حتى يجزم بصدقه جزماً باتاً

(الوجه الثاني) ان الصحابة اختلفوا في بعض القرآن حتى قال ابن مسعود بان الفاتحة والمعوذتين ليست من القرآن مع انها أشهر سوره.ولو كانت بلاغتها بلغت حد الاعجاز لتميزت عن غير القرآن فلم يختلفوا في كونها منه

(الوجه الثالث) انهم كانوا عند جمع القرآن اذا اتى اليهم شخص بآية وآيتين ولم يكن مشهوراً عندهم بالعدالة لا يضعونها في المصحف الا ببينة او يمين والارجح ما مر هو انه لو كانت بلاغتها واصلة الى حد الاعجاز لعرفوها بذلك ولم يحتاجوا في وضعها في المصحف الى عدالة ولا الى بينة او يمين

(الوجه الرابع) لكل صناعة مراتب في الكمال بعضها يفوق بعض وليس لها حد معين تقف عنده ولا تتجاوزه ولا بد في كل زمان من فائق قد فاق

ابناءه بان وصل الى مرتبة من تلك المراتب لم يصل اليها غيره في عصره وان امكن بفوقه شخص آخر في عصر آخر فاعل محمداً كان افصح اهل عصره فاتى بكلام عجز عن مثله اهل زمانه ولو كان ذلك معجزاً لكان ما اتى به كل من فاق اقرانه في صناعة من الصناعات في عصر من الاعصـار معجزاً وهو ضروري البطلان

واما عدم الاختلاف والتناقض فيه مع طوله ففي هـذه القضية وجوه نقتصر على وجهين منها (الاول) ان فيه تناقضاً من ذلك ان فيه كلاماً ملتبساً اذ قال « ما فرطنا في الكتاب من شيء » وقال ولا رطب ولا يابس الا في كتاب بين ولا شك ان القرآن لا يشتمل على اكثر العـلوم من المسائل الاصولية والطبيعية والرياضية والطبية ولا على الحوادث اليومية فلا يكون هذا مطابقاً للواقع

ومن ذلك ايضاً ان فيه اختلافاً بالصحة وعدمها اذ فيه اللحن نحو ان هذان لساحران . قال عثمان حين عرض عليه المصحف ان فيه لحناً وستقيمه العرب بالسنتهم ومن ذلك التكرار اللفظي فان فيه تكراراً لفظياً بلا فائدة كما في سورة الرحمان . وفيه تكرار معنوي كقصة موسى وعيسى . كذلك فيه ايضاح الواضح نحو تلك عشرة كاملة واي خلل اعظم من الكلام غير المفيد. انه نفى عنه الاختلاف حيث قال « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » في معرض الاحتجاج بعدم الاختلاف فيه على كونه من عند الله ثم انا نجد فيه اختلافاً كثيراً فلا يكون هذا الاحتجاج صحيحاً وانما قلنا بكثرة الاختلاف فيه لانه (اي الاختلاف) اما في اللفظ او في المعنى . والاول اما بتبديل اللفظ او التركيب او الزيادة او النقصان والـكل موجود فيه اما بتبديل اللفظ فمثل كالصوف المنفوش بدل كالعهن ومثل فامضوا الى ذكر الله بدل فاسعوا ومثل فكانت كالحجارة بدل فهي كالحجارة . . . واما تبديل التركيب فنحو ضربت عليهم المسكنة والذلة بدل الذلة والمسكنة ونحو جاءت سكرة الحق بالموت بدل الموت بالحق واما الزيادة والنقصان فنحو النبي

اولى من المؤمنين من انفسهم وازواجه امهاتهم وهو اب لهم ففي هذه القراءة زيادة وفي المشهورة نقصان وكذا الحال في قوله « له تسع وتسعون نعجة انثى » واما الاختلاف في المعنى فنحو ربنا باعد بين اسفارنا بصيغة الامر ونداء الرب وربنا باعد بين اسفارنا بصيغة الماضي ورفع الرب والاول دعاء والثاني خبر ونحو هل يستطيع ربك بالغيبة وضم الباء وهل يستطيع ربك بالخطاب وفتح الباء والاول استخبار عن حال الرب والثاني عن حال عيسى

(الوجه الثاني) انه يوجد عدم الاختلاف في كثير من الخطب والقصائد الطوال بحيث لو تتبعها ابلغ البلغاء لم يعثر فيها على سقطة فضلاً عن التناقض والاختلاف ويظهر ذلك كل الظهور في اقصر سورة تحدى بها كما هو الظاهر من قوله « فاتوا بسورة من مثله » فان هذا المقدار من نظمهم ونثرهم خال من الاختلاف بلا شبهة فلا يكون عدم الاختلاف فيه موجباً للاعجاز

واما القول بالصرفة فعليه يكون المعجز هو الصرف لا القرآن الا ترى انه لو قال انا اقوم وانتم لا تقدرون على القيام وكان كذلك لم يكن قيامه معجزاً بل عجزهم عن القيام فهذه المقالة خارقة لاجماع المسلمين السابقين على ان القرآن معجزة لرسول الله دالة على صدقه

خلاصة الجواب عن الشبهة القادحة

قولهم اختلافكم في اعجازه دليل الخفاء فكيف يستدل به على اعجازه قلنا الاختلاف والخفاء وان وقع في آحاد الوجوه فلا اختلاف بيننا ولا خفاء في انه اي مجموع القرآن بما فيه من البلاغة والنظم الغريب والاخبار عن الغيب . . . واشتماله على غير ذلك مما ذكر في وجه الاعجاز معجزة وانما وقع الخلاف في وجهه لاختلاف الانظار ومبلغ اصحابها من العلم

والجواب عن الثانية ان الآحاد لا يعارض القاطع يريد ان اختلاف الصحابة في بعض سور القرآن مروي بالآحاد المفيدة للظن ومجموع القرآن منقول بالتواتر المفيد لليقين الذي يضمحل الظن في مقابلته فتلك الآحاد مما

لا يلتفت اليه ثم ان سلمنا اختلافهم مما ذكر قلنا انهم لم يختلفوا في نزوله على محمد صلى الله عليه وسلم ولا في بلوغه في البلاغة حد الاعجاز بل في مجرد كونه من القرآن وذلك لا يضر فيما نحن بصدده

والجواب عن الثالثة ان اختلافهم عند جمع القرآن فيما يأتي به الواحد من آية او آيتين انما هو في موضعه في القرآن وفي التقديم والتأخير فيما بينه وبين الآيات الاخر لا في كونه من القرآن وذلك لان القرآن كله منقول بالتواتر عنه عليه السلام فما اتى به الواحد كان متيقناً كونه من القرآن وطلب البينة والتحليف انما كان لاجل الترتيب فلا اشكال واما قوله « ان هذان لساحران » فقيل غلط من الكاتب ولم يقرا به فان ابا عمرو قرأ ان هذين وزعم ان كاتب المصحف قد غلط في كتابته بالالف وقول عثمان ان فيه لحناً اي في الكتابة في خط المصحف واما قوله تلك عشرة كاملة فدفع لتوهم غير المقصود ولو بوجه بعيد جداً واما الاختلاف اللفظي او المعنوي الواقع في المنقول المتواتر لا يكون قادحاً في اعجازه بل هو ايضاً من صفات كماله وان المراد بالاختلاف المعنوي عن القرآن هو الاختلاف في البلاغة فهو مع طوله خال من هذا الاختلاف ثم ان قياس اقصر سورة على اطول خطبة او قصيدة جور وعدول عن سوآء السبيل لان التحدي بها انما يكون بما هو على مقدارها المشتمل على مثل بلاغتها لا بما هو اضعافها المشتملة على مثلها كما لا يخفى على ذي مسكة من الانصاف وايضاً فيكفينا في اثبات النبوة كون القرآن بجملته او بسوره الطوال معجزاً وجه ٥٥٨ الى ٥٦٣

ملاحظة في ما تقدم من دفع تلك الشبهة

لا يخفى على النبيه المتحري كون هذا الدفع لتلك الشبه غير واف بالغرض على ان ذلك كل ما هو في حيز الامكان. لا جرم ان المدافعين اجهدوا النفس بايجاد مخرج لكل من تلك الشبه فلم يجدوا الا ما ذكر وما كلف الله نفساً الا وسعها . فنقول اذا على فرض كان الاتفاق واقعاً من حيث نهاية القرآن

في البلاغة لم يقع ان اعجازه في منتهى بلاغته كما قد رأيت في ما مر . الا ترى انهم اختلفوا في دليل اعجازه فقيل اعجازه كونه في الدرجة العالية في البلاغة وقيل اعجازه اخباره عن الغيب وقيل هو عدم اختلافه وقيل هو الصرفة عن معارضته على انهم اختلفوا في هل رتب البلاغة متناهية فيه فالاختلاف واقع في كلا الامرين . ثم انه لا يرى في قياس المشتبه ابلغ خطبة او قصيدة على اقصر سورة جوراً وعدولاً عن سواء السبيل والقرآن يقول « فاتوا بسورة من مثله » بدون التفات الى المعادلة او التفاوت من حيث الطول والقصر فعليه اذا امكن القوم اتيان خطبة او قصيدة تساوي في البلاغة اقصر سورة يكونوا اتوا بمثله ومن المعلوم ان الطويل من الخطبة او القصيدة اوفر عرضة للضعف والسقط من القصير فيقال على سبيل التعجب هذه القصيدة مع طولها خالية من الركاكة والخطاء ومن المحال ان يقال هكذا عن البيتين او الثلاثة الخالية من ذلك . وكأن مراد صاحب الشبه بقياسه هذا هو ان الكلام القصير ايسر جعله في غاية البلاغة من الطويل وان اقصر سورة في القرآن ايسر جعلها في اسمى نقطة من البلاغة من اطول واحدة. يوجد من خطب العرب وقصائدهم ما يعارضها او يفوقها في ذلك فاين اذاً اعجازه؟ على ان صاحب الشبهة لم يقل اذا نظرنا الى اطول خطبة او قصيدة بل الى ابلغ فغايته البلاغة لا الطول فكيف استجاز المجاوب مغالطته

اما قوله في جوابه عن الشبهة الثانية الذي هو ثم ان سلمنا باختلافهم فيما ذكر (اي في امر الفاتحة والمعوذتين) قلنا انهم لم يختلفوا في نزوله (القرآن) على محمد . فهذا ليس بحجة ولا دفع لانهم اذا كانوا اختلفوا في سورة الفاتحة والمعوذتين بان قال بعضهم ليست من القرآن يضعف القول انهم لم يختلفوا في نزول القرآن على محمد اذا اختلفوا في نزول بعضه عليه. فكان الاحرى بصاحب الدفع ان يقول ان سلمنا باختلافهم في نزول بعض القرآن على محمد لم يختلفوا في نزول باقي القرآن عليه عوض قوله لم يختلفوا في نزوله على محمد فعليه بقيت الشبه في اعجاز القرآن غير مدفوعة ولا مدحوضة

اما جوابه عن الشبهة الثالثة فهو الاوفر ضعفاً ووهناً لانه على فرض ان الاختلاف الواقع عند جمع القرآن فيما يأتي به الواحد من الآية والايتين انما هو من حيث موضعها في القرآن لا في كونها منه قلنا اذا كان موضع تلك الآية في القرآن مجهولاً عند الصحابة لايبعد ان يكون مجهولاً عندهم كونها منه ايضاً لانه اذا كانت معلومة انها منه بالنقل المتواتر فلماذا لا يكون معلوماً بالنقل المتواتر موضعها فيه كما في امر الكتاب (التوراة الانجيل) المعلوم بالتواتر انزال كامل اجزائه وترتيب فصوله وآياته. على ان العارفين يؤكدون ان هذا الاختلاف الباعث على طلب البينة من الآني بتلك الآية والآيتين وتحليفه انما كان على كونها من القرآن وللاثبات بوجه شرعي كونها منه. لان القوم على ما هو مؤكد كانوا يأتون بتلك الآيات مكتوبة على حجارة او عظام او سعوف النخل ويعرضونها على جامعي القرآن من الصحابة مدعين انها انزلت على النبي فيطالبونهم بالبينة على صحة دعواهم واذا عدموا البينة حلفوهم اليمين فلو كان جامعو القرآن عارفين من قبل بتلك الآيات انها من القرآن ما كان داعٍ لابرازها على تلك المواد بل كان الواحد من العرب يقول اني اذكر او اؤكد ان آية كذا هي في موضع كذا من القرآن وقد سمعت الرسول يقرأها في سورة كذا منه. ومثل هذه الجملة على ظني لا وجود لها في قصة جمع القرآن وعدم وجودها مع اعتبار الملاحظات الحقة اعلاه تبين بطلان الدعوى ان البينة واليمين كانتا لاثبات موضع تلك الآيات في القرآن لا لاثبات كونها منه

اما قوله بخصوص اللحن في جملة ان هذان لساحران قيل غلط من الكاتب وان قول عثمان ان في القرآن لحناً يعني في الكتابة في خط المصحف فهو لقول عديم الاعتبار عند اهل البصائر ولفظة قيل لا يعول عليها لانه لو كان مراد عثمان باللحن الغلط من كاتب القرآن لبادر الى اصلاحه وما ابقى اللحن على حاله في كتاب يعتبره كتاب الله فقوله ان في القرآن لحناً وستقيمه العرب بألسنتهم وتركه ذلك اللحن على ما هو دليل على ان عثمان اعتبر ذلك اللحن اصلياً في القرآن («ان في القرآن لحناً») فعليه تبقى الشبهة في مركزها غير

متزعزعة وقوله واما قوله تلك عشرة كاملة فدفع لتوهم غير المقصود ولو بوجه بعيد جداً هو اقرار بان الشبهة في محلها وليس من سبيل الى دفعها لان ايضاح الواضح سخافة في الكلام فلا داعي له ولا لزوم لان من يتوهم العشرة تسعة الا قاصر العقل والابله ولان المدافع لا يجهل ذلك قال ولو بوجه بعيد جداً وربما يقول بعض القارئين كان الاكيس للمدافع لو لم يتعرض البتة لهذه الشبهة ولكن رأى انه عار عليه كمناظر ومدافع عن القرآن الاعراض عن شبهة من الشبه القادحة في اعجازه ولما لم ير بداً من دفع لها لجأ الى ما قال وهو على ما أرى على غير ثقة به

ثم ما يغرب جداً جعله الاختلاف اللفظي والمعنوي في القرآن غير قادح في اعجازه بل هو ايضاً من صفات كماله لوقوعه في المنقول المتواتر فلمَ وما دليل ذلك فاذا كان مراده بذلك ان وجود هذا الاختلاف في القرآن دليل عدم التغيير فيه من حين جمعه عثمان فنصادق له على ذلك . على ان هذا ليس بشيء من الدليل على كماله فاذا كان هذا الاختلاف فيه قبل ان جمع عثمان نسخة لاجل تنقيحها وحين جمعه لم يمسه باصلاح ما بل ابقاه على علاته كما في امر ان هذان لساحران فيكون هذا الاختلاف فيه اصلياً وهو ينكد على دعوى كماله وعلى القول «لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» واغرب من ذلك انه يعتبر الاختلاف المنفي عن القرآن هو الاختلاف في البلاغة كأنه لما لم يستطع نكران ما فيه من الاختلاف اللفظي والمعنوي خلافاً لمنطوق الآية المذكورة لجأ الى القول ان الاختلاف فيه من حيث البلاغة . حسن. فنقول اذا كان على فرض كما يزعم ان الاختلاف في القرآن من حيث البلاغة لا من حيث اللفظ والمعنى وعلى فرض ان عدم اختلافه في البلاغة دليل اعجازه يكون معجزاً من حيث البلاغة لا من حيث الالفاظ والمعاني وهو من عند الله من حيث البلاغة ومن عند غير الله من حيث الالفاظ والمعاني . فهل ذلك اعتقاد المسلمين على ان عدم وجود اختلاف في بلاغة كتاب طويلاً كان او قصيراً ليس هو دليلاً على ان ذلك الكتاب من عند

الله بل على حصول منشئه على موهبة البلاغة من الله . من المعلوم ان جودة العقل وقوة النباهة وسرعة الخاطر وحدة الذاكرة هي مواهب من عند الله فاذا رأينا انساناً في غاية الفصاحة ومنتهى البلاغة نقول سبحان الوهاب المعطي وقط لا يخطر لنا ان كلماته وكتاباته البايغة الخالية من الركاكة والخطاء انها منزلة من الله وان قائلها نبي الله . وعليه اذا كان القرآن على فرض غايةً في البلاغة وخالياً من الاختلاف فيها نقول ما ذلك الا لما خص قائله من موهبة الفصاحة التي هي من مواهب الله لخالقه فلا شيء في ذلك من دليل النبوة لان موهبة الفصاحة قد يستعملها ذووها في الكلام المنزل وغير المنزل ويمكن خلوهما من الاختلاف في البلاغة كما في كثير من خطب اليونان والعرب واشعارهم .

وهنا لدى المسلم اشكال خطير لانه ان قال ان القرآن معجز من حيث اللفظ والمعنى قلنا له وجود الاختلاف فيه ابطل دعوى اعجازه من هذا القبيل وان قال بل اعجازه في بلاغته قلنا قد ظهر بطلان ذلك فيما مر من الكلام . هذا اذا كان القرآن كما يدعون في غاية الفصاحة ومنتهى البلاغة على ان هذه الدعوى قد سقطت فيما تقدم من شبه القادحين في اعجازه وعدا ذلك فان كثيرين من العارفين باحكام اللغة ينكرون عليه ذلك بادلة وبراهين لا تدحض .

تذييل

لقد اتضح من الآيات الموردة في هذا الباب مع تأويلها ان محمداً ما أتى بآية معجزة وان عدم ارساله بالآيات المعجزات على طراز الرسل المتقدمين لم يكن الا اشفاقاً على العرب من عذاب الاستئصال اذا لم يؤمنوا بعد رؤيتهم الرسول بعمل تلك الآيات فينتج من ذلك عدم مؤاخذة القوم بعدم تصديقهم دعوى محمد بالرسالة بدون آية تبرهن صحة دعواه لان المؤاخذة على موجب الآية واقعة بعدم تصديق القوم الدعوى المبرهنة بالآية المعجزة اذاً

لا مؤاخذة لانهم لم يروا معجزة . واذا قلت ان القرآن معجزة بالغة قاهرة مثل فلق البحر واحياء الميت قلنا اذا كان القرآن على قولك معجزة قاهرة بمثابة آيات موسى وعيسى وجب مؤاخذة القوم الذين سمعوه ولم يؤمنوا به مواخذةً توجب استئصالهم لانه اذا وجب استئصال الاقوام الاولين لعدم ايمانهم برسل الله بعد رؤيتهم الآيات منهم وكان القرآن آية بمثابة تلك او أتمّ منها (راجع تفسير الرازي وجه ١٢) وجب بالاولى بمقتضى هذا القانون والسنة استئصال القوم الذين لم يصدقوا دعوى محمد بالنبوة والرسالة ويؤمنوا لانهم سمعوا القرآن الذي هو معجزة قاهرة كتلك الآيات لتلك الاقوام ولما لم يستأصلوا دل عدم استئصالهم على ان القرآن ليس بآية معجزة كما يدعون وفقاً للقول « وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون » فعلى الوجه الايجابي ان القرآن آية معجزة تبطل الآية « وما منعنا ... » وعلى الوجه السلبي ان القرآن ليس بآية تسقط عن القوم المؤاخذة. لعدم تصديقهم محمداً وهذا منكر فانّى للمسلم العاقل الخروج من هذه الدائرة والمناص من هذا القفص على انه قد اتضح لدينا جزئياً مما تقدم في هذا الباب ان القرآن بكل الوجوه ليس بآية معجزة كما يدعون

واما ما روي في الحديث ان محمداً عمل عدة آيات مثل نبع الماء من بين اصابعه وتكثير الطعام القليل لاشباع جم غفير فهذه الروايات بضاعة كاسدة عند ذوي النبالة من المسلمين لانها تنافي القرآن كل المنافاة الذي يصرح بعدم ارسال محمد بالآيات وكون القرآن غنياً عنها ولو جرت على يدي محمد آية واحدة لذكرت في القرآن وما قال القرآن ما قال من الآيات العديدة المبينة ان محمداً ما ارسل بالآيات وانه لم يعمل آية واحدة اجابة لسائليه ولما كان الحديث لا يقاس بالقرآن لان المعول على القرآن عند وقوع الخلاف بينهما وكل لبيب يرى انه لم يكن حسبان القرآن معجزة غنية عما سواها من المعجزات الا ان لا معجزة عندهم لمحمد سواه

الباب الثاني

في الآيات المبينة ان محمداً لم يرسل لاجبار الناس واكراههم على الايمان

لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ « سورة البقرة آية ٢٥٧ »

(التفسير) ملخص التفسير قال ان في تأويل هذه الآية وجوهاً (أحدها) وهو قول ابي مسلم والقفال انه تعالى ما بنى امر الايمان على الاجبار والقسر وانما بناه على التمكن والاختيار وان القسر والاجبار مما لا يجوز في دار الدنيا. ونظيرها قوله تعالى « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » وقوله في سورة اخرى « ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » اذاً الاكراه والالجاء الى الايمان غير جائز لانه ينافي التكليف (الثاني) هو ان الاكراه ان يقول المسلم للكافر ان آمنت والا قتلتك فقال تعالى « لا اكراه في الدين » (الثالث) لا تقول لمن دخل في الدين بعد الحرب انه دخل مكرهاً لانه اذا رضي بعد الحرب وصح اسلامه فليس بمكره ومعناه ان لا ينسبوهم الى الاكراه (الرازى مجلد ١ وجه ٤٧٢ و ٤٧٣)

وتفسير الآية في البيضاوي اذاً الاكراه في الحقيقة الزام الغير فعلاً لا يرى فيه خير يحمله عليه ... وقيل اخبار بمعنى النهي اي لا تكرهوا في الدين وهو اما عام (اي على الجاهلية واهل الكتاب) منسوخ بقوله جاهد الكفار والمنافقين او خاص باهل الكتاب (اليهود والنصارى) لما روي ان انصارياً كان له ابنان تنصرا قبل البعث (اي قبل بعث محمد نبياً) فالزمهما ابوهما وقال والله لا ادعكما حتى تسلما فاختصما الى رسول الله فقال الانصاري يا رسول الله ايدخل بعض النار وانا انظر اليه فنزلت الآية فخلاهما (بيضاوي مجلد ١ وجه ١٧٦)

وفي الجلالين قد ظهر بآيات البينات ان الايمان رشد والكفر غي نزلت فيمن كان له من الانصار اولاد اراد ان يكرههم على الاسلام (جزء ١ وجه ٤٦)

(ملاحظة) قد رأينا في تفسير الآية من الامامين الرازي والبيضاوي ثلاثة امور جديرة بالاعتبار

(الامر الاول) ان الله تعالى ما بنى امر الايمان على الاجبار والقسر (الامر الثاني) ان الاكراه والالجاء الى الايمان غير جائز لانه ينافي التكليف (الامر الثالث) قيل ان الآية اخبار بمعنى النهي اي لا تكرهوا فاقول اذا كان تعالى ما بنى امر الايمان على الاجبار والقسر يكون الاجبار والقسر على الايمان منافياً لما بنى الله . واذا كان الاكراه والالجاء الى الايمان غير جائز فمن يفعله يجوز ما ليس بجائز واذا كانت الآية اخباراً بمعنى النهي عن الاكراه فيكون ذلك الاكراه اما فعل قبل النهي او كان في النية والعزم فعله عند سنوح الفرصة فنهى عنه بها وعليه فان الآية « لا اكراه في الدين » نهي مطلق عن الاكراه وهو عام لا خاص كما يستدل ايضاً من الامرين الاول والثاني اعلاه واما قول الرازي لا تقولوا لمن دخل في الدين بعد الحرب انه دخل مكرهاً لانه اذا رضي بعد الحرب وصح اسلامه فليس بمكره ... فهو غير مقبول من وجه انه يندر ان يسلم شخص بعد الحرب طائعاً مختاراً بل الغالب ان الداخلين في دين الاسلام عقيب انغلابهم في الحرب وتضعضع احوالهم من غزوات المسلمين وفتكهم هم مكرهون او مضطرون الى ذلك فكيف جاز اطلاق عدم الاكراه على مثلهم . انسى ان الجهاد في غزو الجاهلية واهل الكتاب ايما كان على موجب القرآن ليكون الدين كله لله كما يقول « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » (سورة البقرة آية ١٨٩)

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ

خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ « سورة البقرة آية ٢٧٤ »

(التفسير) في تأويل هذه الآية اراء ومسائل خلاصتها ان بعض اصحاب محمد ابوا التصدق على سائليهم من اقاربهم المشركين فاستشاروه في ذلك فنزلت الآية فأمر محمد بالتصدق عليهم ومنها ان محمداً ما كان يتصدق على المشركين حتى نزلت الآية فتصدق عليهم والمعنى على جميع الروايات ليس عليك هدى من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لاجل ان يدخلوا في الدين فتصدق عليهم لوجه الله ولا توقف ذلك على اسلامهم وقال « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » فاعلمه الله تعالى انه بعثه بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً ومبيناً للدلائل فأما كونهم مهتدين فليس ذلك منك ولا بك فسواء اهتدوا او لم يهتدوا فلا تقطع معونتك وبرك وصدقتك عنهم . وفيه وجه اخر ليس عليك ان تلجئهم الى الاهتداء على ايمانهم بواسطة ان توقف صدقتك عنهم فان مثل هذا الايمان لا ينتفعون به بل الايمان المطلوب منهم هو الايمان على سبيل التطوع والاختيار (رازي مجلد ١ وجه ٥٢٢ و ٥٢٣)

وتفسير البيضاوي لهذه الآية هو لا يجب عليك ان تجعل الناس مهتدين وانما عليك الارشاد والحث على الخير والنهي عن القبائح (مجلد ١ وجه ١٨٤)

وتأويلها في الجلالين هو قال ان هذه الآية نزلت بسبب منع محمد صلى الله عليه وسلم التصدق على المشركين ليسلموا فالمراد منها ليس عليك ادخال الناس في الاسلام انما عليك البلاغ وهداية الناس على الله وثواب ما تنفقون من المال صدقة عائد الى انفسكم وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله اي ثوابه لا غيره من اغراض الدنيا خبر بمعنى النهي وما تنفقون من خير تجازون عليه (جزء اول وجه ٤٩ و ٥٠)

(ملاحظة) ما احلى واجمل مفاد هذه الآية حسب تفسير الائمة المذكورين فياذا البصيرة والاخلاص قف وانظر اذا كان لا يجب منع التصدق على المشرك لاجل ان يسلم او لئلا يضحي ذلك الجاء له الى الدين بسبب عوزه فكم بالحري

لا يجب غزوه ومحاربته لهذه الغاية لانه اذا كان حرمان المشرك من الصدقة قد يكون له الجاء الى الدين فكم بالحري القهر في الحرب والسبي والنهب وخوف القتل بعد الاستسلام (كما في امر يهود قريظة الذين بعد ان استسلموا الى محمد امر بهم فضربت رقابهم) يكون اكبر سبب لالجاء المقهور المسبي الخائف الى الدخول في دين الغالب وعليه كيف لاق بالامام الرازي القول لا تقولوا لمن دخل في الدين بعد الحرب انه دخل مكرهاً اما كان الاجدر به الحكم بعدم جواز غزو القبائل ومحاربتها لاجل ان يدخلوا في دين الاسلام وفقاً لهذه الآية وما تقدمها وخصوصاً ان مفاد الآية هو انما عليك البلاغ وعلى الله الهداية .. وانها خبر بمعنى النهي انما يكون محمد منهياً عن اتخاذ أية وسيلة كانت لالجاء الناس الى الدين لان الايمان الحاصل من قبيل الالجاء لا ينفع بل الايمان النافع هو ما كان على سبيل التطوع والاختيار واذا كانت هذه حقيقة ربانية فانى التوفيق بينها وبين القول « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله »

وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ « آل عمران مدنية آية ١٩ »

(التفسير) ان ليس للنبي الا ابلاغ الادلة واظهار الحجة فاذا بلغ ما جاء به فقد ادى ما عليه وليس عليه قبولهم والله بصير بالعباد يفيد الوعد والوعيد (رازي مجلد ١ وجه ٦٣٢)

وتفسير البيضاوي لها هو ان اسلموا فقد نفعوا انفسهم بان اخرجوها من الضلال وان تولوا فانما عليك البلاغ اي فلا يضروك اذ ما عليك الا ان تبلغ وقد بلغت (مجلد ١ وجه ١٩٨)

والجلالين قل لليهود والنصارى ومشركي العرب أأسلمتم اي اسلموا فان

اسلموا فقد اهتدوا من الضلال وان تولوا عن الاسلام فانما عليك التبليغ للرسالة والله بصير بالعباد فيجازيهم باعمالهم (جزء ١ وجه ٥٦)

(ملاحظة) قد اجلت هذه الآية عن انه ليس لمحمد الا تبليغ الناس الرسالة التي اتى بها والدليل والحجة فهذه مع الجزء الاخر من الآية الذي هو والله بصير بالعباد اي هو يجازيهم على اعمالهم تفيد افادة قطعية انه ليس لمحمد اتخاذ الحرب بتة والتضييق على الناس كوسيلة لادخالهم في دينه او مقاصتهم على ابائهم الاسلام وفقاً لما جاء في آية اخرى «عليك البلاغ وعلينا الحساب»

فاذا كان محمد قد ادى ما عليه اذ ما عليه الا ان يبلغ وقد بلغ فلم يبقَ عليه شيء آخر كانسان عليه دين الف غرش فاذا ادى الالف غرش لم يبق عليه شيء من الدين واذا كان الله حسب قوله ما ارسله الا بشيراً نذيراً وما عليه الا تأدية ذلك للناس فاذا عمل ذلك ماذا يبقى عليه . لا شيء . فلم يقف على هذا الحد

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ « الانعام آية ٦٦ »

(التفسير) قل لست عليكم بوكيل اي لست عليكم محافظاً حتى اجازيكم على تكذيبكم واعراضكم عن قبول الدلائل انما انا منذر والله هو المجازي لكم باعمالكم. قال ابن عباس والمفسرون نسخت هذه الآية بآية القتال والامام ينكر ذلك قائلاً ان هذا بعيد مفسراً كلمة لكل نباء بانه يجوز ان يكون المراد من ذلك عذاب الاخرة ويجوز ان يكون المراد منه استيلاء المسلمين على الكفار بالحرب والقتال والقهر في الدنيا (رازي مجلد رابع وجه ٩٢)

(ملاحظة) وهذه لك آية رابعة تبين ان محمداً ليس بوكيل على مكذبيه حتى يجازيهم على تكذيبهم اياه وهو يبين بجلاء ما عليه وما لله من جهتهم اي هو منذر والله مجازي المكذبين بآياته واما دعوى ابن عباس وغيره من

المفسرين بان هذه الآية نسخت بآية القتال وان الامام ينكر ذلك فنرى ان الفريقين مصيبان كل منهما من جهة اما اصابة الفريق الاول فان آيات القتال عزلت ايات السلم هذه واخذت مكانها فلم يبق لها من نفوذ البتة اي لم يعد يعمل الابايات القتال . ففعلاً ايات القتال ابطلت نفوذ ايات السلم فاذا قالوا نسختها او ابطلت فعلها لا فرق واصابة الفريق الثاني في انكار هذا النسخ هو لما يرى من رسوخ ايات السلم ومتانتها غير القابلة النقض والهدم لان محمداً ما ارسل الا للتبشير والانذار والبلاغ ولو ارسل لغير ذلك كالحرب والقتال ما كانت الآيات على هذا المنوال وان الآيات هذه اخبار بمعنى النهي عن الاكراه والاجبار فكيف يبين وظيفة محمد كمبشر ونذير وينهاه عن وسائل الاكراه والالجاء الى الدين مبيناً عدم صلاحية ذلك كما قد رأيت فيما مر ثم يعدل الى القول بصلاحيته والامر به وذلك لعمرك لا يجدر بالمخلوق العاقل فكم بالحري بالقدوس الكامل تعالى الله وجل من مثل ذلك .

قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ أَفَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ «الانعام آية ١٠٤»

(التفسير) ندع رقم تفسير قد جاءكم بصائر من ربكم ونذكر ملخص تفسير باقي الآية قال من ابصر الحق وآمن فلنفسه ابصر واياها نفع ومن عمي عنه فعلى نفسه عمي واياها ضر بالعمى « وما انا عليكم بحفيظ » احفظ اعمالكم واجازيكم عليها انما انا منذر والله الحفيظ عليكم ثم يقول الغرض بهذه البصائر ان من ينتفع بها اختياراً استحق بها الثواب لا ان يحمل عليها ان يلجأ اليها لان ذلك يبطل هذا الغرض . فمن ابصر فلنفسه ومن عمي فعليها قال وفيه ابطال قول المجبرة في المخلوق قال المفسرون ان معناه لا اخذكم بالايمان اخذ الحفيظ عليكم او الوكيل قالوا وانما هذا كان قبل الامر بالقتال فلما امر بالقتال صار حفيظاً عليهم . ومنهم من يقول آية القتال ناسخة لهذه الآية وهذا بعيد فكأن هؤلاء المفسرون مشغوفون بتكثير النسخ من غير حاجة اليه والحق ما

قرره اصحاب اصول الفقه ان الاصل عدم النسخ فوجب السعي في تقليله بقدر الامكان (رازي مجلد ٤ وجه ١٧٦).

(ملاحظة) وهذه لك آية خامسة تبين عدم صلاحية الالجاء الى الدين فلنا من تفسير هذه الآية ثلاثة امور ذات شأن

(الاول) ان ما على محمد حفظ اعمال المشركين ومجازاتهم عليها

(الثاني) ان الالجاء الى الدين يبطل منه غرض الثواب

(الثالث) تخويل الله الانسان مطلق الحرية في امر الدين والعبادة بحيث يستحق العقاب ان عصي والثواب ان اطاع واما ان ذلك منسوخ بآيات القتال فهو زعم باطل من وجه ان الاكراه الى الدين غير جائز في الشرع لمنافاته التكليف وكونه يبطل الغرض من الدين الذي هو الثواب ولذلك قال لا اكراه في الدين غير ان الحال (واحسرتاه) عكس ذلك من وجه ان آيات القتال ابطلت العمل بآيات السلم والاكراه في الدين قام مقام النهي الصريح عنه والقائل ما انا عليكم بحفيظ اضحى عليهم حفيظاً وعمله بمجازاة الناس ذهب بقوله هذا ادراج الرياح . وهنا نقول اذا كان محمد لجأ الى وسائل الاكراه والالجاء الى الدين فهو بذلك يبطل غرض الدين من خصوص المكره اليه اي يعدمه الثواب واذا كان محمد كما يزعمون أرسل رحمة للعالمين فكيف يكون كذلك وهو يعدم الناس ثواب الله الذي هو غرض الدين باجبارهم والجائهم الى الدخول فيه . فما سبيلك ايها المسلم الى التوفيق بين الرايين والجمع بين الضدين . وانا لنثني على الامام بقوله عن دعوى هذا النسخ . وهذا بعيد . كأنه راى في هذه الآيات ما يراه كل بصير وهو استحالة نسخها لما انها اخبار بمعنى النهي عن اتخاذ وسائل الاكراه والالجاء غير النافع والمبطل غرض الدين والمنافي لحرية الضمير الممنوحة من لدنه تعالى للانسان . غير انه لم يبين لنا ما هو بعيد وما مراده بقوله الحق ان الاصل عدم النسخ فهل مراده عدم النسخ في هذا الامر فان كان هذا مراده فاين يذهب بآيات القتال والاكراه وكيف يوفق بين النسخ وعدمه فهذا حقاً بعيد البعيد

وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ « الانعام آية ١٠٧ »

(التفسير) ندع رقم تأويل القول « ولو شاء الله ما اشركوا » ونأتي بما يخص تأويل باقي الآية قال واعلم انه تعالى لما بين ان لا قدرة لاحد (سواه) على ازالة الكفر عنهم ختم الكلام بما يكمل معه تبصير الرسول عليه السلام وذلك انه تعالى بين له قدر ما جعل اليه فذكر انه تعالى ما جعله عليهم حفيظاً ولا وكيلاً على سبيل المنع لهم وانما فوض البلاغ بالامر والنهي في العلم والعمل وفي البيان بذكر الدلائل او التنبيه عليها فان انقادوا للقبول فنفعه عائد اليهم والا فضرره عائد عليهم (رازي مجلد ٤ وجه ١٧٨ و ١٧٩)

وتفسيرها في البيضاوي هو وما جعلناك عليهم رقيباً وما انت عليهم بوكيل تقوم بامورهم ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله اي لا تذكروا آلهتهم التي يعبدونها بما فيها من القبائح (بيضاوي مجلد ١ وجه ٣٩٦)

(ملاحظة وهذه آية سادسة تبين لك القدر الذي جعل لمحمد من لدن الله وهو البلاغ والانذار ولزيادة البيان ودفعاً للتوهم انه اعطي ان يجازي الذين لا يقبلون بلاغه وانذاره قال وما انت عليهم بوكيل والتفسير ما جعله عليهم حفيظاً ولا وكيلاً على سبيل المنع لهم . فحاصل ما راينا فيما تقدم ان محمداً قد نهي نهياً مطلقاً راسخاً عن ايذاء المشركين بداعي الجائهم الى الدخول في الدين بثلاثة امور وهي (١) عدم اكراههم على الاسلام بالسلاح او غيره (٢) عدم الامتناع عن الاحسان اليهم (٣) عدم سبهم فما بقي له غير البلاغ والانذار بالحب واللطف والحلم قبلوا او ابوا

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللّٰهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ « يونس آية ٩٩ و ١٠٠ »

(التفسير) قال المراد ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً على رأي الجبائي والقاضي وغيرهما مشيئة الالجاء اي لو شاء الله ان يلجئهم الى الايمان لقدر عليهم ولصح ذلك منه ولكنه ما فعل ذلك لان الايمان الصادر من العبد على سبيل الالجاء لا ينفعه ولا يفيده فائدة « أ فأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» والمعنى ان لا قدرة لك على التصرف في احد والمقصود منه بيان ان القدرة القاهرة والمشيئة النافذة ليست الا للحق سبحانه وتعالى « وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله تعالى » قال القاضي المراد ان الايمان لا يصدر عنه الا بعلم الله وتكليفه او باقداره عليه (رازي وجه ٤٢ مجلد ٤)

وتفسير البيضاوي لهذه الآية هو أ فأنت تكره الناس بما لم يشاء الله منهم ... على ان خلاف المشيئة مستحيل فلا يمكنه تحصيله بالاكراه عليه « وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله» الا بارادته واطلاقه وتوفيقه فلا تجهد نفسك في هداها فانه الى الله (بيضاوي مجلد ١ وجه ٥٥١)

(ملاحظة) لا جرم ان هذه الآية كالآية الاولى في هذا الباب نهي عن الاكراه بألطف اسلوب وهي كانت اما لان محمداً كان قد ابتدأ باتخاذ وسائل الاكراه او انه كان قد نوى اجراءه متى مكنته الاحوال وهي تبين تقصير الاكراه عن ابلاغ الناس شأو الايمان لان ذلك عطية الله وخاص به . فاذا كان الاكراه في الدين ممنوعاً من لدن الرحمن لعدم نفعه وفائدته فكيف وجب الاكراه

قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ « يونس مكية آية ١٠٨»

(التفسير) خلاصة تأويل هذه الآية انه تعالى بين انه اكمل الشريعة وازاغ العلة وقطع المعذرة فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل

عليها وما انا عليكم بوكيل فلا يجب على من سعى في ايصالكم الى الثواب العظيم وفي تخليصكم من العذاب الاليم اكثر مما فعلت . قال ابن عباس هذه الآية منسوخة بآية القتال (رازي مجلد ٥ وجه ٢٩)

(ملاحظة) لك في هذه الآية وتأويلها امران

(الاول) انه تعالى ما قصد بارسال محمد اكثر من انزال الشريعة وابلاغها الناس

(الثاني) انه ليس من الواجب على محمد من جهة الناس اكثر من البلاغ والانذار فعليه اذا كان محمد باشر القتال واتخذ وسائل القهر والاكراه فهو انما عمل ما لم يكن في قصد الله بارساله وغير الواجب عليه واذا كان لا يجب على محمد اكثر من البلاغ والانذار والنصح كيف وجب عليه الغزو والغارات والقتال والنهب والسبي واذا كان ذلك جائزاً وواجباً فلمَ القول لا اكراه في الدين أفأنت تكره الناس حتى يؤمنوا فكيف لا يكون اكراه في الدين وفي الدين اكراه لعمرك ذلك من اعظم التضاد والخلاف غير القابل الجمع والائتلاف وما احلى ما قال ابن عباس ان هذه الآية منسوخة بآية القتال فيا ابن عباس احقاً لم تر عدم قابلية الآية للنسخ او لم تر ان القول لا اكراه في الدين هو نفي مطلق الاكراه والقول أفأنت تكره الناس حتى يؤمنوا الى اخر الآية بيان جلي لعدم نفع الاكراه وانه تعالى لا يريده وكيف قال لمحمد وما جعلناك عليهم حفيظاً وما انت عليهم بوكيل وهذا ليس فقط قولك يا ابن عباس بل هو قول المسلمين اجمع من حين شرع محمدكم بالغزو والقتال وليس من مسلم يقول بثبوت هذه الآية المكينة ويبقى في قلبه محل لآيات القتال ولا اعلم كيف ان علماء الاسلام وهم يفهمون هذه الآيات ويأولونها هذا التأويل الحسن يقبلون آيات القتال ويرون وجوبها وصلاحيتها واذا كانوا يعتقدون بان كلا نوعي الآيات من عند الله يقعون لا بد بارتباك لا يرون الى الخروج منه من سبيل بل يبقون يمرجون بين هذا وذاك الى ما شاء الله

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ «شورى مكية آية ٤»

(التفسير) الذين اتخذوا من دونه اولياء اي جعلوا له شركاء وانداداً الله حفيظ اي رقيب على احوالهم واعمالهم لا يفوته منها شيء وهو محاسبهم عليها ولا رقيب عليهم الا هو وحده وما انت يا محمد بمفوض اليك امرهم ولا قسرهم على الايمان انما انت منذر (رازي مجلد ٥ وجه ٣٨٥ و ٣٨٩)

وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (النحل مكية آية ٨٣ و ٨٤ و ٨٥)

(التفسير) نقتصر على تأويل «فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين» قال اي ان تولوا يا محمد واعرضوا وآثروا لذات الدنيا ومتابعة الاباء والمعاداة في الكفر فعلى انفسهم جنوا ذلك وليس عليك الا ما فعلت من التبليغ التام (رازي مجلد ٥ وجه ٥٠٤)

وتفسير البيضاوي لهذه الآية فان تولوا او اعرضوا ولم يقبلوا منك فانما عليك البلاغ المبين فلا يضرك فانما عليك البلاغ وقد بلغت وهذا من اقامة السبب مقام المسبب (مجلد اول وجه ٦٧٧)

(ملاحظة) وهذه ايضاً ثلاث آيات تبين ان محمداً ما ارسل لقسر الناس واكراههم على الايمان ومؤدى الامر سواء اهتدى المشركون بواسطة سمع الكتاب او ضلوا ما انت عليهم بوكيل اي لست مأموراً بان تحملهم على الايمان

على سبيل القهر والثانية لا رقيب على المشركين الا الله وحده وان محمداً غير مفوض اليه منه تعالى امرهم ولا قسرهم على الايمان والثالثة ان اعرض القوم عن قبول بلاغه وانذاره ليس عليه الا البلاغ فواعجباً كيف ان علماء الاسلام يعرضون عن الاخذ بمفاد هذه الآيات الصريحة ويستجيزون مخالفتها بما يزعمون نزوله من آيات القتال فيا محمد اذا كان لا رقيب على المشركين الا الله وحده فكيف صرتَ عليهم رقيباً واذا كنت ما انت عليهم بوكيل حتى تكرههم على قبول الدين فكيف صرتَ عليهم وكيلاً حتى تغزوهم وتهرق دماءهم وتسبي ذراريهم واذا كان ربك ما فوض اليك امرهم بل انما امرك فقط بابلاغهم وانذارهم وان هذا عليك فقط قبلوا ام امتنعوا فلمَ لم تقف على هذا الحد حتى ان تولوا تدعهم وشأنهم وربك بصير بهم

وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ « الرعد مدنيه آية ٤٠ »

(التفسير) ملخصه قال اعلم ان المعنى واما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب ان نتوفينك قبل ذلك والمعنى سواء اريناك ذلك او توفيناك قبل ظهوره فالواجب عليك تبليغ احكام الله تعالى واداء امانته ورسالته وعلينا الحساب والبلاغ اسم اقيم مقام التبليغ كالسراع والاداء

(ملاحظة) الامر واضح من هذه الآية انه ليس على محمد سوى ابلاغ الناس رسالة ربه وعلى الله محاسبتهم ان تولوا اي اعرضوا عن قبولها مصرين على كفرهم كما رأيت فيما تقدم من الآيات غير ان هذه الآية كفصل الخطاب في بيانها ما على محمد وما على الله « فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب » كأنه تعالى قسم امر العباد بينه وبين محمد بان جعل على محمد ابلاغهم حقه تعالى وعليه محاسبتهم ومجازاتهم فاذا كان الامر هكذا فهل يجوز لمحمد ان يدين لمعرضين عن ابلاغه متخطياً الحد الموضوع له من ربه

وَلاَ تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ وَكَفَى بِاللّٰهِ وَكِيلاً « الاحزاب آية ٤٧ »

(التفسير) ملخصه قال ولا تطع الكافرين اشارة الى الانذار يعني انه خالفهم ورد عليهم وعلى هذا فقوله تعالى ودع اذاهم أي دعه الى الله فانه يعذبهم بايديكم وبالنار (رازي مجلد ٦ وجه ٧٨٩ و ٧٩٠)

وتفسير الجلالين لهذه الآية ولا تطعهم فيما يخالف شريعتك واترك اذاهم ولا تجازهم على كفرهم ونفاقهم وتوكل على الله فهو كافيك (جزء ثاني وجه ١٢٠)

(ملاحظة) لا غرو ان الاصابة للجلالين دون الرازي في تفسير هذه الآية وانك ترى في تفسيرها من الرازي عيباً وخطاء بيناً لا يجدر بعاقل نظيره. فأي بصير مميز يرى في القوم ودع اذيتهم انه يعذبهم بأيدي محمد واتباعه فهل النهي عن اذاء القوم في عرفه انباء على ان المنهي سيعذب اولئك القوم بأيدي المنهي عن اذاهم وقومه فكأن الامام رام التوفيق بين هذا النهي والردع عن اذية الكافرين والمنافقين وبين القول «ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تخذوا منهم اولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تخذوا منهم ولياً ولا نصيراً» (سورة النساء آية ٨٨) فاختلف هذا المعنى الغريب عن النص ودع اذيتهم ولم يدرِ ان التوفيق بين هذين القولين والجمع بين هذين الضدين ليس بايسر من التوفيق بين النار والماء والجمع بين الحرام والحلال

ثم ان النص في هذه الآية بيان لعلة وجود الآية «لا اكراه في الدين» والآية أفأنت تكره الناس حتى يؤمنوا وهو الايذاء المكره فكأن محمداً كان هم او بدى باذية القوم لاكراههم على قبول الاسلام فنهى بهما عن الاكراه، واذا كانت تانك الآيتان اخباراً بمعنى النهي عن الاكراه فالقول ودع اذاهم نهي بين وهكذا فلا نرى الا نهياً يتبع نهياً وتحريضاً يتبع تحريضاً على عدم

التعرض للمشركين بسوء واذاء. بل الاقتصار على ابلاغهم وانذارهم ومجادلتهم بالتي هي احسن فتأمل

أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ «النحل آية ١٢٦»

(التفسير) ملخص التفسير قال ادع الاقوياء الكاملين الى الدين الحق بالحكمة وهي البراهين القطعية اليقينية وعوام الخلق بالموعظة الحسنة وهي الدلائل اليقينية الاقناعية الظنية وتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الاحسن الأكمل ثم قال تعالى ان ربك هو اعلم بالمهتدين والمعنى انه مكلف بالدعوة الى الله تعالى بهذه الطرق الثلاث فأما حصول الهداية فلا يتعلق بك (رازي مجلد ٥ وجه ٥٣٥)

وتفسيرها في الجلالين هو ادع الناس يامحمد الى سبيل ربك ودينه بالحكمة اي القرآن والموعظة الحسنة او القول الرقيق وجادلهم بالمجادلة التي هي احسن كالدعاء الى الله بآياته والدعاء الى حججه «ان ربك اعلم بمن ضل» فيجازيهم (جزء اول وجه ١٤٤)

(ملاحظة) هذه الآية بيان لوظيفة محمد وهي دعوة الملا الى سبيل الله بالبرهان والدليل بالرفق والحلم والاقتصار على ذلك فليت محمداً استمر على هذه المعاملة ووقف عند هذا الحد ولم يتخطه الى الغزو والاغتيال كاغتياله الرجال الذين لم يقبلوا دعوته او نكتوا عليه ككعب ابن الاشرف وابي عفك الشيخ وسفيان ابن خالد وابي رافع ابن ابي عقيق الامر الذي لا يجدر بذي البأس فكم بالاولى من هو باعتبار نبي مرسل للارشاد والهدى

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا «بني اسرائيل مكية آية ١٠٦»

(التفسير) ملخص التفسير قال أعلم انه تعالى لما بين ان القرآن معجز قاهر دال على الصدق . . . ثم حكي ان الكفار لم يكتفوا بهذا المعجز بل طلبوا سائر المعجزات ثم اجاب الله بانه لا حاجة لاظهار سائر المعجزات وبين ذلك بوجوه كثيرة منها ان قوم موسى عليه الصلاة والسلام اتاهم الله تسع آيات بينات فلما جحدوا بها اهلكهم الله فكذا ههنا. ثم انه تعالى لو اتى قوم محمد تلك المعجزات التي اقترحوها ثم كفروا بها وجب عذاب الاستئصال بهم وذلك غير جائز في الحكمة لعلمه تعالى ان منهم من يؤمن والذي لا يؤمن فسيظهر من نسله من يصير مؤمناً ولما تم هذا الجواب عاد الى تعظيم حال القرآن وجلالة درجته فقال وبالحق انزلناه وبالحق نزل والمعنى انه ما اردنا بانزاله الا تقرير الحق والصدق ثم قال تعالى «وما ارسلناك الا مبشراً ونذيراً» والمقصود ان هؤلاء الجهال الذين يقترحون عليك هذه المعجزات ويترددون على قبول دينك لا شيء عليك من كفرهم فاني ما ارسلتك الا مبشراً للمطيعين ونذيراً للجاحدين فان قبلوا الدين الحق انتفعوا به والا فليس عليك من كفرهم شيء (رازي مجلد ٥ وجه ٦٦٧ و٦٦٨)

(ملاحظة) ان دعوى كون القرآن معجزاً قد تكلمنا عليها وابنا بطلانها في الباب الاول من هذا المؤلف وكذلك مسئلة عذاب الاستئصال فلتراجع في محالها ثم لا يخفى على القارئ العزيز ان لفظة الا في هذه الآية تفيد الحصر بان محمداً ليس هو اكثر من مبشر ونذير ما ارسل الا الى ذلك اذا اقام بهما يكون ادى كلما عليه فليس له ان يتجاوز امر التبشير والانذار لانه ما ارسل (حسب الآية) الا الى ذلك . ولنفرض ان الآية كانت بسبب اقتراح القوم على محمد آيات معجزات كآيات موسى وعيسى وان المراد بها ان محمداً ما ارسل لعمل الآيات نقول يدخل تحت هذا الحصر ايضاً انه ما ارسل لقتال الناس بداعي اكراههم والجائهم الى الدين الممنوع كلياً بالآيات المتقدمة وبعد فلا احلى ولا اجمل من كلمتي مبشر ونذير لان الاولى خبر خير والثانية خبر عن شر مقبل ممكن توقيه مبشر للمطيعين ونذير للجاحدين فاسألك اذا الجأ هذا

المبشر والنذير الى وسائل القهر والاكراه ألا يكون قد تجاوز حدود ارساليته هذه وهل يبقى مقام لحرف في آية وما ارسلناك الا مبشراً ونذيراً وهل يمكن للقوم ان يتوسموا فيه المبشر وهم لا يرونه الا عاتياً قاهراً مجبراً يدعو الملا بحد سيفه الى قبول دعوته او اداء الجزية عن يد وهم صاغرون . وهل من عاقل يرى لزوماً للقول وما ارسلناك الا مبشراً ونذيراً اذا كان سبحانه أرسله لغزوا الاقوام وقسرهم على الاسلاموهل من مسلم مدرك حر الفكر لا يرتبك كل الارتباك لدى تأمله بمثل هذه الآيات البينات وهو يرى محمداً رجل حروب وفتوحات وغنائم لا لعمري لا ..

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ « سورة الزمر مكية آية ٤٢ »

(التفسير) خلاصته ان محمداً كان يعظم عليه اصرار القوم على الكفر فقال تعالى انا انزلنا عليك الكتاب الكامل الشريف لنفع الناس ولاهتدائهم به وجعلناه مقروناً بالحق وهو المعجز الذي يدل على انه من الله فمن اهتدى فنفعه يعود عليه ومن ضل فضير ضلاله يعود عليه وما انت عليهم بوكيل والمعنى لست مأموراً بان تحملهم على الايمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوّض اليهم وذلك لتسلية الرسول في اصرارهم على الكفر (رازي مجلد ٧ وجه ٢٦٥ و٢٦٦)

(ملاحظة) لا زالت الآيات تتوارد بالسور المتتابعة ان محمداً ليس على الناس بحفيظ او وكيل وما فتئ المفسرون يذهبون في تفسيرها ان الله ما جعل النبي على الناس وكيلاً لقهرهم وقسرهم على الايمان او مجازاتهم على اعراضهم وعدم ايمانهم فقد ورد ذلك كما قد رأيت بست آيات في خمس سور ٣ في سورة الانعام و١ في سورة يونس و١ في سورة شورى و١ في سورة

الزمر وما جاء في تفسير هاته الآيات هو ليس لمحمد مجازاة الناس على تكذيبهم اياه بل ذلك لله. لا آخذكم بالايمان اخذ الحفيظ والوكيل بل احفظ اعمالكم واجازيكم عليها انما انا منذر والله الحفيظ عليكم. وان الالجاء الى قبول البصائر من الله يبطل الغرض منها وهو الثواب اي انه لا يكون ثواب لمن الجيء الى قبول دلائل الله . وان محمداً ما جعل عليهم حفيظاً او وكيلاً على سبيل المنع لهم. وان لا يجب على النبي من السعي في ايصال القوم الى الثواب العظيم وفي تخليصهم من العذاب الاليم أزيد مما فعل وهو التبشير والبلاغ والانذار . وان محمداً ما فوض اليه امر القوم وقسرهم على الايمان وان الله هو الرقيب على اعمالهم ومحاسبهم عليها . وليس محمد مأموراً بحمل القوم على الايمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض اليهم انتهى

فلقد رأينا في هذه الآيات وامثالها في هذا الباب اربعة امور حرية بالاعتبار

(الاول) عدم جواز الاكراه في الدين (ثانياً) عدم جواز مجازاة المعرضين عن قبول دعوة محمد (ثالثاً) عدم وجوب منع التصدق عليهم (رابعاً) بيان العمل الذي أرسل اليه محمد الذي هو التبشير والانذار وتحديده على سبيل الحصر. فانظر اذا كان محمد ليس فقط منهياً عن اتخاذ وسائل الاكراه والقهر بل مأموراً بالاحسان لغير المؤمنين لئلا يكون مسك التصدق عليهم وسيلة الجائهم الى الدين لكون الاكراه والالجاء الى الايمان ينافي التكليف ويبطل الغرض من الدين الذي هو الثواب وان محمداً ما ارسل لمثل ذلك فهل يبقى من محل بعد لآيات القتال او من مسوغ للاكراه والالجاء والقهر كلا لانه كيف يكون لا اكراه في الدين وفي الدين اكراه . وكيف الاكراه والالجاء الى الدين غير نافع ونافع وكيف محمد ما ارسل لمثل ذلك وارسل اليه فهل لعمرك من نقيضين اعظم من هذين وهل من سبيل للجمع بينهما. هل يسوغ ان ينسب لله الكامل القدوس مثل هذا التناقض والتضاد اي ان يقول ما ارسلت عبدي فلاناً الا لعمل كذا وكذا ثم يقول بل ارسلته ايضاً لعمل كذا وكذا وما ارسلت عبدي ليفعل كذا ثم ينقض قوله ويقول بل ارسلته ليفعل

وما اقمته على الناس وكيلاً ليكرههم او يقاصهم ثم يقول اقمته ليجاهد الـكفار والمنافقين كلا ؟ وحاشا لله ان يأتي مثل ذلك جل وعلا عنه علواً كبيراً

تذييل

من المعلوم ان محمداً الناطق بهذه الآيات السامية مدة بقائه في مكة سار بموجبها بتواضع وحلم ودعة وكذا بعد هجرته الى يثرب مدة وانما حين استفحل أمره وعظم شأنه بوفرة انصاره وابطاله رأى ثم من مصلحته ومصاحة اصحابه وتبعته العدول عن منهج السلم والدعة والاقتصار على البلاغ والانذار الى منهج الغزو والغارات . فانقاب من مبشر ونذير الى قاهر مجبر ومن رجل الدعة والسكينة الى رجل الحرب والقتال اذ أخذت آيات القتال تنصب عليه صباً فلم يبق لتلك الآيات السامية من مقام الاحترام سوى مجرد وجودها في القرآن وليس من غرضنا في ذيل هذا الباب الخوض في مسئلة الناسخ والمنسوخ لاننا افردنا لها بابا مخصوصاً سوى اننا نسأل المسلم الفطن من خلا لبه من شائبة التعصب وراق ذهنه من عكر الاغراض الطائفية ألا يرى ديمومة الغرض في هذه الآيات أي الاخذ بها والعمل بموجبها الى ان تقترب الساعة وتنقضي الدنيا واذا كانت هذه الآيات هكذا راسخة ثابتة دائمة الغرض كما قد تبرهن لك ينتج من ذلك ان العدول عنها عدول عن اطاعة منزلها فهل يسلم بذلك والا فاينا المخرج من هذه الدائرة وله الفضل . نعم ان بعض المفسرين لم يروا في وسعهم كما رايت الا جعل غرض هذه الآية موقتاً لغاية تنزيه القرآن عن الاختلاف والتضاد على ان تعبهم في ذلك يذهب ادراج الرياح لدى القارئ النبيه الذي لايرى فيها أدنى الماع الى الوقت بل بالحري كل جزء منها يبين انها كانت للعمل بها على الدوام. واذاعلى فرض حاول تقييد عقله واسر فكره الى ما ارتآه الآخرون من وقتيتها بغية التأليف بين آيات القرآن ياتي من نفسه مقاومة ومن ضميره توبيخاً انك لمن الظالمين ظامت الحق وعقلك لان هذه الآيات هي الاولى في القرآن وهي غير قابلة الالغاء والزوال

على اني لا اصدق ان مسلماً لبيباً مخلصاً يرى ان هذه الآيات انما أنزلت للعمل بها ما دام الرسول في حالة العجز والضعف وتلغى أو تطوى متى اعتزّ بالرجال وتقوى بالعدد والمال وهو يقرأ فيها كما بالقلم العريض «لا اكراه في الدين» وما أرسلناك الاّ مبشراً ونذيراً «عليك البلاغ وعلينا الحساب» وهنا في عيني المسلم العاقل مشكل لا يرى الى حله من سبيل وهو اذا كانت الآيات هكذا مكينة ثابتة لاتطوى ولا تلغى فأين المحل لآيات القتال للاكراه الى الدين والانتقام من الذين لايؤمنون وانى له التوفيق بينها واذا كان ذلك محالاً فكيف يكون نوعا الآيات من الله والتملص من هذا الاشكال بالقول سبحان الله انه فوق كل ذي علم عليم لايغني عنه مثيل فسبحان الله مدى الادهار غير ان تسبيح الله واجلاله شيء وفهم الآيات واعتبارها والعمل بها شيء آخر وفق الله عباده الى طاعته وتمجيده بمنه وكرمه انه على كل شيء قدير وبالاجابة جدير .

الباب الثالث

في الناسخ والمنسوخ في القرآن

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ « البقرة آية ١٠٠ »

﴿التفسير﴾ في تفسير هذه الآية مسائل وأوجه كثيرة مستطيلة الكلام نأتي بأهمها ملخصاً قالوا ان النوع الثاني من طعن اليهود في الاسلام انهم قالوا ألا ترون محمداً يأمر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه . ويقول اليوم قولاً وغداً يرجع عنه فنزلت هذه الآية

ومن المسائل في تفسير هذه الآية انهم اتفقوا على وقوع النسخ في القرآن وقال أبو مسلم بن بحر انه لم يقع واحتج الجمهور على وقوعه بوجوه (احدها) هذه الآية « ما ننسخ من آية او ننسها» الى آخر الآية (الثاني) ان الله تعالى

أمر المتوفي عنها زوجها بالاعتداد حولاً كاملاً ثم نسخ ذلك بأربعة أشهر وعشراً . (الثالث) انه تعالى امر بثبات الواحد للعشرة بقوله فان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ثم انه نسخ ذلك بقوله تعالى الآن خفف عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً فان يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مائتين (الرابع) انه نسخ القبلة عن بيت المقدس الى حرم مكة وايضاً قوله تعالى «واذ بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر . . .» فالتبديل يشتمل على رفع واثبات والمرفوع اما التلاوة واما الحكم فكيف كان فهو رفع ونسخ . «او ننسها» ان النسيان يصح في هذه الآية بأن امر الله بطرح ذلك المنسي من القرآن واخراجه من جملة ما يتلى ويؤتى به من الصلاة او يحتج به. يروى انهم كانوا يقرأون السورة فيصبحون وقد نسوها أو ننسها ان نتركها وهي الآية التي صارت منسوخة في الحكم ولكنها غير منسوخة في التلاوة (رازي مجلد ١ وجه ٦٥٧ ـ ٦٦٢)

وتفسيرها من البيضاوي هو قال نزلت الآية لما قال المشركون او اليهود الا ترون محمداً يأمر اصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها والحكم المستفاد منها او بهما جميعاً «ما ننسخ» اي نأمرك او جبريل بنسخها او تجدها منسوخة «وننسها» اي ننسي احداً اياها وينسها اي انت وقرأ عبد الله «ما ننسك من آية او ننسخها نأت بخير منها او مثلها» اي بما خير للعباد في النفع والثواب او مثلها في الثواب «الم تعلم ان الله على كل شيء قدير» فيقدر على النسخ والاتيان بمثل المنسوخ وبما هو خير منه الآية دلت على جواز النسخ ... (مجلد ١ وجه ١٠٤ و ١٠٥)

وتفسيرها في الجلالين هو ما ننسخ من آية اي نزل حكمها اما مع لفظها اولاً وفي قراءة بضم النون من انسخ اي نامرك او جبريل بنسخها او ننسها نؤخرها فلا ننزل حكمها ونرفع تلاوتها او نؤخرها في اللوح المحفوظ او ننسها اي ننسكها اي نمحها من قلبك وجواب الشرط « نأت بخير منها » انفع للعباد في السهولة او كثرة الاجر «او مثلها» في التكليف والثواب « الم تعلم ان الله

على كل شيء قدير» ومنه النسخ والتبديل والاستفهام للتقرير (جزء ١ وجه ١١)

(ملاحظة) للقارئ العزيز في تفسير هـذه الآية ثلاث نكت . (النكتة الاولى) الداعي الى طعن المشركين واليهود في الاسلام وما من ذي نصفة لا يرى هـذا الطعن في محله من وجهين (الاول) هو لشهرة العرب بثبات القول كشهرتهم في الكرم فالموت احب اليهـم من تغيير قولهم والاخلاف في وعودهم فلما رأوا محمداً يغير ويبدل في مقاله اي يرجع عما سلف من قوله ويأمر في الغد بما نهى عنه في امسه انكروا عليه ذلك لمنافاته العـادة العربية وحسبوا الاسلام العوبة لا يجدر بالعاقل قبوله

(الوجه الثاني) لان اليهود لم يعهدوا مثل ذلك في شرعهم ولا كان في انبيائهم . اي لا امر ولا نهي من اوامر ونواهي الشرع الذي اعطي بموسى نسخ بلسانه او بلسان خلفه يشوع وكل الانبياء بعد موسى حتى المسيح صادقوا على شرع موسى كما انزل بدون تغيير او تبديل ما فلما رأوا محمداً وهو يدعي النبوة ينسخ ليس فقط من احكام التوراة بل كثيراً من الاحكام المدعي انزالها عليه من عند الله اتباعاً لظروف الزمان والمكان انكروا دعواه حاسبين ذلك منه ضرباً من الحيل السياسية

(النكتة الثانية) هي الدلالة على مثل هـذه الآيات الناسخة على ضعف قائلها والله سبحانه حاشا ان يشوبه ضعف او عجز فينتج من ذلك انها ليست من عند الله لان تنقيص عدة المتوفي عنها زوجها من حول كامل الى اربعـة اشهر وعشرة ايام وثبات الواحد الى عشرة الى ثبات الواحد لاثنين ليس الا ضعف بين في القائل كانه جهل المستقبل وهو ان طول العدة هكذا للمترملة لا تناسب بعد حين لما ان ذلك يضحى تجربة لها او حملاً ثقيلاً على من يتوق الى الزواج بها وان في المسلمين ضعفاء يعجزهم الضعف عن ثبات واحدهم للعشرة كقول الآية وعلم ان فيكم ضعفاء . الم يعلم علام الغيوب ذلك لما قال بثبات واحدهم للعشرة وان علمه فلماذا لم يكن امره منذ الاول واحداً بحيث لا يكون داعي الى نسخه فمن اين اذاً هذا الناسخ لذاك المنسوخ

(النكتة الثالثة) في الانساء والنسيان المختلف فيهما قال بعضهم ان الله امر بطرح ذلك المنسي من القرآن وبعضهم ان المنسي منسوخ في الحكم لا في التلاوة وبعضهم قالوا بالامرين اي بالقراءة والحكم تحت أو وأو ويفسر ننسها ننسي احداً اياها وتنسها اي انت ياجبريل وبعضهم نزيل حكمها اما مع لفظها او لا او نزيل حكمها ونرفع تلاوتها او نؤخرها او نمحوها من قلبك يامحمد فعلى اي او ايها المسلم ألنية تعتمد وبأي تأويل تأخذ وبعد فان الآيات المنسوخة لم تزل من القرآن فهي لا تزال فيه تتلى من المسلمين خلافاً للمذهب الاول غير انها لا حكم لها . ثم ان كلمة ننسها تفيد النسيان اي ذهاب تلك الآية من ذهن السامع والقارئ كما لو كانت لم تسمع ولم تقل وفقاً للرواية انهم كانوا يقرأون السورة فيصبحون وقد نسوها ولما كانت هذه المنسوخة لم تزل في القرآن تقرأ وتسمع وتعقل فاين القول او ننسها وهي غير منسية وعليه فالآية المزعوم انزالها لابكام اليهود وافحامهم او لراحة افكار المسلمين المزعجين بذلك الطعن المقبول قد زادت الطين بلة والمفسرون قد جعلوه مرقاً لا ينفع فلا اعلم كيف يمكن المسلم الحر الفكر ان يعتبر هذه الآية وتأويلها علاجاً شافياً لذلك الطعن ودفعاً قانونياً لذلك الاعتراض وليس في الغاء فرع او بند من بنود الشرع والاتيان ببند مثله او خير منه ما يدل على القدرة الباهرة حتى يقال في ذلك «الم تعلم ان الله على كل شيء قدير» بل بالحري ما يشف عن ضعف المؤلف الذي ينقح تأليفه بالالغاء والتغيير والتبديل في جمله وكلماته كعادة ارباب التأليف من الناس

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ « سورة النحل آية ١٠٣ و ١٠٤ »

(التفسير) ملخصه قال ابن عباس كانت اذا نزلت آية فيها شدة ثم نزلت آية الين منها تقول كفار قريش والله ما محمد الا يسخر باصحابه اليوم يأمر بأمر وغداً ينهي عنه وانه لا يقول هذه الاشياء الا من عند نفسه فأنزل الله هذه الآية «واذا بدلنا آية مكان آية» ومعنى التبديل رفع الشيء مع وضع غيره في مكانه وتبديل الآية رفعها بآية اخرى غيرها وهو نسخها بآية سواها وقوله والله اعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ والتغليظ والتخفيف اي هو اعلم بجميع ذلك في مصالح العباد وهذا التوبيخ للكفار على قولهم انما انت مفترٍ اي اذا كان هو اعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمداً صلى الله عليه وسلم الى الافتراء لاجل التبديل والنسخ «بل اكثرهم لا يعلمون» حقيقة القرآن وفائدة النسخ والتبديل وان ذلك لصالح العباد «وروح القدس» هو جبريل عليه السلام اضيف الى القدس وهو الطهر اي ان جبريل نزل القرآن من ربك ليثبت الذين آمنوا اي ليسلوهم بالنسخ . . . على ان مذهب ابي مسلم الاصفهاني في ان النسخ غير واقع في هذه الشريعة فقال المراد هنا اذا بدلنا آية مكان آية في الكتب المتقدمة مثل انه حول القبلة من بيت المقدس الى الكعبة قال المشركون انما انت مفتر في هذا التبديل واما سائر المفسرين فقالوا النسخ واقع في هذه الشريعة والكلام فيه على الاستقصاء مذكور في سائر السور وذهب الشافعي ان القرآن لا ينسخ بالسنة واحتج على صحة مذهبه هذا بقوله «واذا بدلنا» آية مكان آية يقتضي ان الآية لا تصير منسوخة الا بآية اخرى وهو ضعيف لان لا دلالة في الآية على انه تعالى لا يبدل آية الا بآية وايضاً فجبريل عليه السلام قد ينزل بالسنة كما ينزل بالاية (رازي مجلد ٥ وجه ٥١٩ و ٥٢٠)

وتفسيرها من البيضاوي هو بدّلنا بالنسخ فجعلنا الاية الناسخة مكان المنسوخة لفظاً وحكماً «والله اعلم بما ينزل» من المصالح فاعل ما يكون مصلحة في وقت يصير مفسدة بعده فينسخه وما لا يكون مصلحة حينئذٍ يكون مصلحة الآن فيثبته مكانه «قالوا انما انت مفتر» اي متقول على الله تأمر بشي ثم تبدل

ذلك فتنهي عنه وهو جواب اذاً الله اعلم بما ينزل « بل اكثرهم لا يعلمون » اي لا يعلمون حكمة الاحكام ولا يميزون الخطأ من الصواب « قل نزله الروح القدس » يعني جبريل عليه السلام واضافة الروح الى القدس وهو الطهر كقولهم حاتم الجود (مجلد اول وجه ٦٨٠)

وفي الجلالين « واذا بدلنا آية مكان آية » بنسخها وانزال غيرها لمصلحة العباد والله اعلم بما ينزل قالوا اي الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم انما انت مفتر كذاب تقول من عندك بل اكثرهم لا يعلمون حقيقة القرآن وفائدة النسخ (جزء ١ وجه ٢٥٦)

(ملاحظة) ليس في الآية اعلاه من دفع صحيح او برهان مقنع لمشركي قريش الذين رموا محمداً بالافتراء على الله فيما يدعيه انه من عند الله بقولهم والله ما محمد الا يسخر باصحابه ... وانه لا يقول هذه الاشياء الا من عند نفسه ومن يا ترى لا يرى طعنهم هذا في محله اولاً من وجه الالغاء والتبديل والثاني لان المشترع لم يات بآية قاهرة تثبت كون هذا القرآن وهذا النسخ هو من عند الله والآية ليست بشيء من الدفع لتلك السهام لانه اذا كان القوم اعتبروا القرآن اختلاق محمد فتكون الآية داخلة تحت ذلك الاعتبار فلا تؤثر فيهم وهين على الانسان ان يدعي لقوله التنزيل من الروح القدس انما ذلك لا يكون برهاناً على صحة دعواه ويظهر من الآية انها لم تكن الا لازالة الريبة من قلوب اصحاب محمد بقولها ليثبت الذين آمنو وهدًى وبشرى للمسلمين فيلوح لك من ذلك ان اصحابه تأثروا من طعن قريش بسبب التغيير والتبديل من محمد في القرآن ورابهم الامر في صحة دعواه فكانت الآية « واذا بدلنا آية مكان آية الخ » فهذه الآية كسالفتها والداعي لهما واحد كما ترى غير ان المفسرين هنا يزيدوننا تنويراً في بيانهم سبب هذا التبديل آية بآية وهو انما كان لما هو فيه من المصلحة وان الطاعنين بالاسلام من هذا القبيل ما طعنوا الا لانهم لا يعلمون حقيقة القرآن وفائدة النسخ والتبديل وان ذلك لمصالح العباد الى آخر القول . فنقول لا يصدق بان العرب النبهاء لم يروا فائدة

النسخ والتبديل في القرآن لفيئة تصدوا الى الغزو والفتوحات والغنائم كون الآيات المنسوخة والمبدلة اكثرها ليس فقط لا توافقها على هذا المرام بل تنهاها عنه كما رأيت فيما تقدم في الباب الثاني ولم يظهر قط انهم قالوا بعدم فائدة النسخ والتبديل انما حين رأوا محمد يلغي ويبدل من القرآن بما يراه اوفق للمصلحة والحال حسبوا القرآن مختلقاً من نفس محمد بداعي انه لو كان من عند الله لما وقع فيه هذا النسخ والتبديل مجاراة للمرام البشري ولتقلبات القلب الانساني. وبعد فعلى موجب التأويل المعول عليه يكون تغيير الظروف وتقلبات الاحوال اوجب للنسخ والتبديل في القرآن كأن القرآن على ما يكون المسلمون لا المسلمون على ما هو القرآن وكان سبحانه ملتزم بقوله مجاراة العبد فيلغي اليوم من الاحكام التي انزلها امس او يبدلها بما يرضي ذلك المخلوق امياله ومشاربه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ولمن المعلوم البين ان الانسان من دأبه التقلب في الاراء والتغيير في المناهج لما هو عليه من الفساد والضعف والقول بانه عز وجل ينسخ ويبدل من اوامره واحكامه ويحل من حرامه وفقاً لمشارب امته ومصلحة عباده هو محض افتراء عليه تعالى كيف لا وهو العليم الثابت القول الراسخ الراي الذي انما يعلن للعباد ارادته وينزل على الانسان احكامه وفقاً لكماله وعلو شأنه ليس هو انساناً فيكذب او ابن انسان فيندم فهل يقول ولا يفعل سبحانه من مجيد جليل لاخلاف في قوله ولا تبديل

وَٱللَّاتِي يَأْتِينَ ٱلْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللّٰهُ لَهُنَّ سَبِيلاً « سورة النساء مدنية آية ١٩ »

(التفسير) قال زعموا ان هذه الآية صارت منسوخة بالحديث وهو ما روى عبارة ابن الصامت ان النبي صلى الله عليه وسلم قال خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر والثيب بالثيب البكر تجلد وتنفى والثيب

تجلد وترجم ثم ان هذا الحديث صار منسوخاً بقوله تعالى الزانيـة والزاني فاجلدوا كل واحد مائة جلدة وعلى هذا الطريق يثبت ان القرآن قد ينسخ بالسنة وان السنة قد تنسخ بالقرآن . هذا رأي فريق من المفسرين والفريق الثاني ان هذه الآية صارت منسوخة بآية الجلد . واعلم ان ابا بكر الرازي لشدة حرصه على الطعن في الشافعي قال القول الاول اولى لان آية الجلد لو كانت متقدمة على قوله خذوا عني لما كان لقوله خذوا عني فائدة فوجب ان يكون قوله خذوا عني متقدماً على آية الجلد وعلى هذا التقرير تكون آية الحبس منسوخة بالحديث ويكون الحديث منسوخاً بآية الجلد فحينئذ ثبت ان القرآن والسنة قد ينسخ كل واحد منهما الاخر ثم يستضعف البعض تفسير ابي بكر الرازي ويفسر فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت او يجعل الله لهن سبيلاً بان امساكهن في البيوت محدود الى ان يجعل الله لهن سبيلاً وذلك السبيل كان مجملاً فلما قال صلى الله عليه وسلم خذوا عني الثيب ترجم والبكر تجلد وتنفى صار هذا الحديث بياناً لتلك الآية لا ناسخاً لها الى ان يقول ومن المعلوم ان جعل هذا الحديث بياناً لاحدى الآيتين ومخصصاً الآية الاخرى اولى من الحكم بوقوع النسخ مراراً واما اصحاب ابي حنيفة فيذهبون بان آية الحبس صارت منسوخة بآية الجلد (الرازي مجلد ٣ وجه ٢٤٤ و٢٤٦ و٢٤٧)

(ملاحظة) لقد جاءتنا هذه الاية وتأويلها بغرائب مدهشة لم تكن في الحسبان وهو نسخ القرآن بالسنة والسنة بالقرآن اي قد ينسخ احدهما الاخر فانعم به من طراد بين السنة والقرآن . زعموا ان السنة قد نسخت الآية المتقدمة بحديث خذوا عني كما رايت فيما تقدم ثم انتصر القرآن لنفسه بان نسخ حكم السنة المذكورة بقوله الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد مئة جلدة

فكأن القرآن والحديث باعتبار هذه المسألة خصمان يروم كل منهما امتهان الاخر فتأمل . ثم ان بعضهم تخلصاً من هـذا الامر العائب ذهبوا ان الحديث خذوا عني ... انما هو بيان لآية الحبس لا ناسخ لها مفسرين او

يجعل الله لهن سبيلاً ان هذا السبيل هو ما روي في الحديث الجلد والنفي للبكر والجلد والرجم للثيب فهل يا ترى من مسلم بصير مخلص يرضى بذلك وهو يرى ان آية الحبس مبدولة بآية الجلد فلو ان ذلك السبيل المنوه عنه بآية الحبس هو النفي والرجم بحسب رواية الحديث لكانت آية الجلد التابعة أبانت ذلك ولما ان هذه الآية نسخت الحديث بالنفي والرجم كما تقدم بيانها ثبت ان حديث الرجم ليس هو السبيل المنوه عنه في آية الحبس فانظر حفظك الله ايسوغ ان ينسب مثل هذا العمل لله الجليل العليم ؟ الا يكون امتهاناً لله القول بانه سبحانه يقول قولاً ثم ينسخه بقولٍ ينافيه ثم ينسخ الناسخ بقول آخر ايليق مثل ذلك بعظماء الدنيا كلا وهل بلغك عن عظيم في الارض أتى بمثله فان كان ذلك لا يجدر بالانسان فكم بالاولى لا يجدر برب السموات والارض سبحانه ان يشوبه شائبة وجل وعلا عما اليه ينسبون

تذييل

ليس في القرآن اغرب من مسئلة الناسخ والمنسوخ ولا اشكل منها في عيني المسلم الفطن فلا بدع ان تأخذه الحيرة لدى النظر في هذه المسئلة نظراً دقيقاً خالياً من شائبة الغرض وهل يقدر ان يرى القول بان المنسوخة كانت في وقت انزالها غاية في المناسبة لمصلحة الاسلام اذ كان المسلمون حينئذ بحال الوهن والضعف فاقتضى ابدالها حال اعتزاز الاسلام بما هو خير منها حلاً صحيحاً لهذا الاشكال وهو يرى الاية الفاصلة «وما ارسلناك الا بشيراً ونذيراً» (سورة اسرائيل مكية آية ١٠٤) لا لعمري هل بالاقل لا يدور في خلده عدم امكان التمييز الصحيح بين الناسخ والمنسوخ ويقول لعل الناسخ عندي هو المنسوخ او ان المنسوخ عندي هو الناسخ فما ادراني ان اقول لا اكراه في الدين (البقرة آية ٢٥٢) ناسخ للاكراه أليس بعض علمائنا يفسرونها انها اخبار بمعنى النهي اي لا تكرهوا في الدين (راجع باب ٢ وجه ٢٢) والا ما الداعي لانزالها وقد كان سالف محمد في الانبياء عيسى ابن مريم المشهور

بالدعة والحلم والاحسان الى الناس سواء المقتصر في دعوة الملاء على المحبة والاعمال الخيرية الموصي حواريه وأمته بحب الاعداء ومعاملة ذوي الاساءة بالاحسان وأهل الغلظة بالرفق والاناة فلو ان عيسى عليه السلام جاء مكرهاً الناس الى الدين وعقبه ارسال محمد رحمة للعالمين لكان ذلك داعياً للقول لا اكراه في الدين تحريراً له من اتباع خطة عيسى في الاكراه أي يا محمد لاتحذو حذو سالفك عيسى باكراه الناس الى الدين أنت رسول الله الى الناس وما على الرسول الاّ البلاغ ولما لم يكن عيسى مكرهاً يستبان ان الآية نهي لمحمد عن الاكراه وعليه فهي ناسخة لامنسوخة وما يزيد المسئلة جلاء الآية «أفأنت تكره الناس حتى يؤمنوا وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله» الخ الآية(١) فكيف يعال عن الباعث لانزال هذه وتلك الاّ اذا كان محمد ابتدأ بالاكراه أو نواه فاقتضى انزالها نهياً اليه وردعاً له عن نهج هذا المنهج واذا كان الله ينهي محمداً عن الاكراه والاعتداء مبيناً انه تعالى ما ارسله الاّ لمثل ذلك كما قد رأيت في مجمل الآيات الواردة في ذلك الباب ينتج من ذلك ان نسخها وابدالها بآيات الاكراه كما يزعمون خلاف والتواء عديم المثال لانها أي الآيات المتقدمة ما هي الاّ نهي عما جال في خاطر محمد أو شرع به واذا نسخ هذا النهي بالمنهي عنه يكون ذلك عبارة عن حرب قائمة على قدم وساق بين آيات القرآن كأنه من ضدين لا يجتمعان . وعليه يسوغ ان يقال انه حين اختاج في صدر محمد حب الاكراه والجزاء او الشروع في اتخاذ وسائله اتت الآيات الناهية له عن ذلك فأوقفت العمل الى انه لم يعد في وسعه وجلده الاقتصار على البلاغ والانذار والوقوف على حدود الآيات الناهية ولما لم يكن في وسعه اجتياز تلك الحدود الا بمسوغ شرعي كانت الآيات الناسخة لذلك النهي فاصبح من ثم المنهي عنه مأموراً به وغير النافع ولا مفيد نافعاً وواجباً . وبعد فأي تضاد واختلاف إعظم مما بين القول «لا اكراه في الدين» والقول وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة

(١) يونس آية ٩٧و٩٨ ,

ويكون الدين لله (١) والقول وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين (٢) والقول «فاذا انسلخ الاشهر الحرام فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» (٣) وايضاً . فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق الى آخر الآية (٤) والقول «وقل للذين اوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فان اسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد (٥) والقول قاتلوا الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (٦) والقول «لاتطع الكافرين المنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى به وكيلاً (٧) والقول ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً (٨) وأيضاً يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير (٩) والقول وماارسلناك الاّ بشيراً ونذيراً (١٠) وأيضاً انما عليك البلاغ وعلينا الحساب (١١) وما أنت عليهم بوكيل (١٢) والقول فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرّض المؤمنين (١٣) وايضاً يا ايها النبي حرّض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين (١٤) الى غير ذلك مما يغنينا عن ذكره ما ذكر

وبعد فانه هرباً من القول بالتناقض والخلاف قيل هو ناسخ ومنسوخ اي ابطال حكم سابق بحكم تال بداعي ان الحكم السابق كان من منزلة الى اجل معلوم . فحين بلغ اجله انتضى نسخه وابداله بحكم آخر موافق لحالة الاسلام واذا طولبوا بالبرهان قالوا البرهان انما هو انزال الآيات الناسخة وهو

(١) البقرة آية ١٨٨ (٢) البقرة آية ١٥٨ (٣) التوبة آية ٥ (٤) محمد آية ٤ (٥) آل عمران آية ١٨ (٦) التوبة آية ٢٨ (٧) الاحزاب آية ٤٥ (٨) النساء آية ٨٨ (٩) التوبة آية ٧١ وتحريم آية ١١ (١٠) اسرائيل آية ١٠٤ (١١) الرعد آية ٤٠ (١٢) شورى آية ٤ (١٣) النساء آية ٨٣ (١٤) الانفال آية ٦٥

كما لا يخفى ليس برهاناً البتة من وجهين (الوجه الاول) احتياج هذه الآيات الى البرهان كونها من عند الله (الوجه الثاني) كونها امر بما قد سبق النهي عنه في تلك الآيات المزعوم نسخها غير ان المعتبر ان كل كلمة في مصحف القرآن هي من عند الله سواء وافقت حكم العقل ام لا ويعتبرون الناقض وهو ما يسمونه الناسخ دليلاً على انقضاء اجل المنسوخ. لكن اذا سألتهم بل اذا سألوا انفسهم وكانوا من ذوي الاخلاص ما هو الناسخ والمنسوخ لعجزوا عن بيانهما حق البيان لما يرون في المزعوم نسخه قوة النسخ لما زعموا انه ناسخ له كما في آية لا اكراه في الدين واخواتها كما قد رايت فيما مر فلا اقدر اصدق ان ذوي النبالة من المسلمين تسلم عقولهم بوقوع النسخ على مثل هذه الآيات الناهية والراهنة قطعاً وبتة عن القتال واتخاذ وسائل الاجبار والاكراه فكم بالحري غير المسلمين الذين يرون ان التغيير في النفس غيره في القول. والميل الى ابدال المنهج ابدل الحكم والنزع الى الغزو والغنائم نسخ آيات السلم بآيات القتال واحال رجل الدعة والسكينة الى رجل الغارات والبطش والمبشر النذير الى قاهر وما يزيد ذلك تأييداً هو سبق الفعل للنسخ لا النسخ للفعل اي تعدي الحكم قبل نسخه وصيرورة ذلك التعدي وسيلة لنسخ المتعدى عليه كما ترى في مسئلة سرية عبد الله ابن جحش الاسدي الى نخلة فان الآية الناسخة للآية المانعة عن القتل في الاشهر الحرام التي هي «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل فيه قتال كبير الى آخر الآية» انما كانت بعد ارتكاب عبد الله المذكور القتل في الشهر الحرام واعطاء خمس السلب لمحمد وتعيير قريش محمداً بارتكاب سريته القتل في الشهر الحرام ووقع ذلك في قلوب اصحابه (١) فالناسخ هنا تابع لا متبوع فتأمل ويماثل ذلك عدة من الآيات منها ما كان اتباعاً للرغائب كما في مسئلة تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة زعموا ان النبي كان يتمنى من الله تحويل القبلة الى حرم مكة فكانت الآية قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر

«١» انظر السيرة النبوية المكية وجه ١١٢ و١١٣ و١١٤ والرازي مجلد ٢ وجه ١١٨

المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره (١) -فانظر ان محمداً اذ لم يكن راضياً بيت المقدس قبلة للعرب بل كان يود ابداله بحرم مكة لدواع سياسية كانت الآية وفق مرامه : وكذا آية زواجه بزينب امرأة زيد فانها ما نزلت الا بعد ان نظر تلك المرأة ووقعت في قلبه فقال سبحان الله مقلب القلوب وود التزوج بها لو وجد الى ذلك سبيلاً ينزهه عن العار فنزلت الآية بسواغ ذلك له وهي واذ تقول للذي انعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله احق ان تخشاه فلما قضى زيد وطراً منها ازوجناكها الى آخر الآية (٢) ومنها ما كان مجاراة لضعف القوم بخيانتهم حكم الله في الصوم كما ترى في آية (أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وانتم لباس لهن علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن» الى آخر الآية زعموا ان مجامعة النساء كانت محرمة ليلة الصيام على المسلمين كما على اهل الكتاب قبلهم بداعي الآية (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين قبلكم» وذهب آخرون ان وقاع النساء كان جائزاً ليلة الصيام بشرط ان لاينام الرجل وان لايصلي العشاء الاخيرة فاذا فعل احدهما حرم عليه ذلك وانه حدث ان جماعة من المسلمين منهم عمر ابن الخطاب خانوا بذلك بان اتوا نسائهم بعد صلاة العشاء الاخيرة حتى قال محمد لعمر لم تكن جديراً بذلك يا عمر فنزلت الآية والقول فيها انكم كنتم تختانون انفسكم أي ترتكبون الخيانة بالجماع ليلة الصيام (٣) ومنها ما كان حلاً لما حرم محمد عليه وتحلة لايمانه بتحريم ذلك وهو يا أيها النبي لم تحرم ما احل الله لك تبتغي مرضاة ازواجك والله غفور رحيم قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم والله موليكم وهو العليم الحكيم «سورة تحريم آية ١ و٢» زعموا ان سبب هذه نزول الآية هو ان محمداً واقع زوجته مارية القبطية في بيت زوجته حفصة ابنة عمر الخطاب وهي غائبة فجاءت فشق ذلك عليها فارضاها

«١» الرازي مجلد ٢ وجه ٢٠ «٢» الرازي مجلد ٦ وجه ٧٨٥ وبيضاوي مجلد ٢ وجه ٢٧٣ و٢٧٤ «٣» رازي مجلد ٢ وجه ١٩٧-٢٠١

وسألها الكتمان وذلك انه قال لها اكتمي عليّ وقد حرمت مارية على نفسي وابشرك ان ابا بكر وعمر يملكان بعدي امر امتي وان حفصة اخبرت عائشة بذلك ولما لم تكتم أمره طلقها واعتزل نساءه تسعة وعشرون يوما حتى كما قيل نزل جبرائيل وامره بمراجعتها بداعي انها صوامة قوامة وقال مسروق حرم النبي صلى الله عليه وسلم ام ولده (يعني مارية) وحلف انه لايقربها فأنزل الله هذه الآية فقيل له أما الحرام فحلال واما اليمين التي حلفت عليها فقد فرض الله لكم تحلة ايمانكم (١) فانظر انه حرم واثبت التحريم بالايمان وطلق وكانه لما رأى ان لا ذنباً لمارية يوجب تحريمها عليه وعدم مناسبة طلاق بنت عمر الخطاب وتضايق من جرى ذلك ولا يليق بالنبي المشترع ان يحل الحرام ويحنث بالايمان ويراجع المطلقة بدون مسوغ شرعي وزوجة النبي لاتجوز لآخر كانت الآية من جهة تحليل مارية ونزول جبرائيل لمراجعة حفصة ومنها ما كان تبرئة لفعل انكر على محمد فعله كما ترى في غزوة بني النضير (قبيلة يهود بجوار يثرب) اذ كان محمد في اثناء محاصرته اياهم يقطع نخيلهم فنادوه من الحصون يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها اهو افساد ام اصلاح فارتاب بعض اصحابه بجواز هذا الفعل وتأثروا من اعتراض بني النضير قيل فنزلت من ثم الآية «وما قطعتم من لينة (اللينة النخلة التي ثمرها من دون نوى) أو تركتموها قائمة على اصولها فباذن الله ولنجزي الفاسقين» (٢) ومنها ما كان بياناً لعدم جواز فعل صدر من محمد وهو صلاته على جثة المنافق (المؤمن ظاهراً والكافر باطناً) عبد الله بن ابي سلول ونهياً له عن اتيانه مثل ذلك فيما بعد اذ زعموا ان الآية «ولا تصل على احد منهم مات ابداً ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون» نزلت غب فراغ محمد من الصلاة على المذكور واقامته على قبره حتى نهاية دفنه وقالوا ان عمراً مانع محمداً من الصلاة على المذكور بداعي نفاقه فلم يمتنع فنزلت

«١» رازي مجلد ثامن وجه ٢٣١ و٢٣٢ والجلالين جزء ثاني وجه ٢٤٤
«٢» السيرة النبوية جزء اول وجه ٢٩٣و٢٩٤و٢٩٥

الآية مصداقاً لرأي عمر كعدة آيات غيرها مثل آية تحويل القبلة المتقدم ذكرها وآية الحجاب للنساء وآية تحريم الخمر (١) فتأمل حفظك الله كيف كانت الرغائب والاميال والافعال والآراء مغنطيساً جاذباً لتلك الآيات المجارية. لعمرك هل رأيت لذلك نظيراً في التوراة ان الله نسخ حكماً من أحكامه واحل حراماً من حرامه تبرئة للمتعدي او الخائن او انزل شرعاً اتباعاً لراي بشر ومجاراة لامياله ومراعاة لرغائبه فرداً كان او جماعة نبياً او ملكا بل بالحري اي خان او تعدى حدود الشرع كان ينزل تعالى آياته تبكيتاً لذلك المتعدي وكثيراً ما كانت تنزل آيات الله ردعاً لقصد القاصد وميله لاجراء امر غير مرضي لله او ليس هو وفق الشرع قبل خروج تلك النيات الى حيز الفعل فما ابعد هذا عن ذاك

وبعد فان كلاً من الناسخ والمنسوخ باق في المصحف فمسكين المسلم السليم الطوية المخلص النية الذي يتلو هذه وتلك بكرةً وعشية بغاية الوقار والخشية وهو جاهل ايهما باق وايهما ملغى فانه لامحالة يؤخذ بالحيرة والربكة من تجاذب الآيات اياه من طرفي نقيضين فكاني به وهو في موقف التردد والتحير يقول آه وا اسفاه لِمَ هذا التباين والتضاد في القرآن اهو من مصدرين متضادين كلا وحاشا هو من عند الله الواحد الاحد. اذاً ماذا واين الحل لهذا الاشكال الغريب اني اخال حكم السلم فيه مكين مؤيد لقوله عز وجل انه ما بعث نبياً وارسله الا للتبشير والانذار لا مكرهاً ولا مجبراً لانه تعالى يقول لا اكراه في الدين وينهي محمداً عن مثل ذلك بآيات بينات مثل قوله افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين لست على الناس بحفيظ او وكيل ليس عليك الا البلاغ قبلوا او تولوا عليك البلاغ وعلينا الحساب. وذلك لاجرم لطف من الله ورفق بالعباد كمنهاج عيسى وحوارييه الاطهار وهل الله براجع عن قوله وناقض لحكمه وهو العليم الرحيم كلا وحاشا ولو انه سبحانه ارسل محمداً صلى الله عليه وسلم لقتال المشركين واكراههم على الدين اكان انزل عليه مثل هذه

(١) رازي مجلد رابع وجه ٧٠٦ والسيرة النبوية جزء ثاني وجه ١٥٩ و١٦٠

الآيات المنافية لذلك والغير القابلة النسخ والنقض.اما كان تعالى اكتفى بانزال آيات الجهاد والقتال وهو القادر على نصر رسوله في كل حال فما هذا الاشكال الذي لا ارى الى حله من سبيل . ماذا اعمل ولاي جهتي القولين اميل . أأحترم الآيات كالقانون للايمان والعمل ومنها مبطل وقائم وناقض ومنقوض لاحول ولا . . . .

ثم أقول لا بدع ان يأخذ قاريء القرآن العجب من الدعوى بسلامته من الاختلاف بقول الآية «ولو كان من عند غير الله لوجد فيه اختلافاً كثيراً» ويزيده تعجباً واندهالاً عدم اعتبار أئمة الاسلام وعلمائه الناسخ والمنسوخ فيه اختلافاً كان حسبان ذلك عدم اختلاف قضية بديهية لا تقبل جدال مكتفين بالبحث فيما يعده بعضهم اختلافاً من حيث اللغة والركاكة في بعض الالفاظ والتكرار غير المفيد وايضاح الواضح الى غير ذلك كما قد رأيت فيما مر في الباب الاول (وجه ١٣و٤ و١٥) فنسألهم أليست الآيات الناسخة مخالفة للمنسوخة والمنسوخة ضد الناسخة فماذا يا مسلم تسمي هذا التباين والتضاد الا ترى نوعي الآيات في هذا الباب مختلفين متضادين بلى.اذاً القرآن فيه اختلاف كثير فهو اذاً من عند من . نترك ذلك لحكمتك وانصافك هداك الله محجة الصواب وان انصفت اجزل لك حسن الثواب

الباب الرابع

الآيات المبينة ان الكتاب التوراة والانجيل لم يعتره تغيير ولا تحريف لفظي

وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (البقرة آية ٢٩)

(التفسير) لاتلبسوا الحق بالباطل أمر بترك الاغوا والاضلال واعلم ان اضلال الغير لايحصل الاّ بطريقين وهو اما ان كان سمع دلائل الحق فاضلاله لايمكن الا بتشويش تلك الدلائل عليه وان كان ما سمعها فاضلاله انما يكون

باخفاء تلك الدلائل عنه ومنعه من الوصول اليها فقوله ولا تلبسوا الحق بالباطل اشارة الى القسم الاول وهو تشويش الدلائل عليه وقوله وتكتموا الحق اشارة الى القسم الثاني وهو منعه من الوصول الى الدلائل واعلم ان الاظهر في الباء التي في قوله بالباطل انها باء الاستعانة والمعنى ولا تلبسوا الحق بسبب الشبهات التي توردونها على السامعين وذلك لان النصوص الواردة في التوراة والانجيل في أمر محمد عليكم كانت نصوصاً خفية يحتاج في معرفتها الى الاستدلال ثم انهم كانوا يجادلون فيها ويشوشون وجه الدلالة على المتأملين فيها بسبب القاء الشبهات فهذا هو المراد بقوله ولا تلبسوا الحق بالباطل (رازي مجلد اول وجه ٤٦٥)

وتفسيرها في البيضاوي هو «ولا تلبسوا الحق بالباطل» اللبس الخلط وقد يلزمه جعل الشيء مشتبهاً بغيره والمعنى لاتخلطوا الحق المنزل عليكم بالباطل الذي تخترعونه حتى لا يميز بينهما أو لا تجعلوا الحق ملتبساً بسبب خلط الباطل الذي تكتمونه في خلاله أو تذكرونه في تأويله «وتكتمون الحق وأنتم تعلمون» كانهم امروا بالايمان وترك الضلال ونهوا عن الاضلال بالتلبيس على من سمع الحق والاخفاء على من لم يسمعه أي لاتجمعوا لبس الحق بالباطل وكتمانه وأنتم تعلمون عالمون بأنكم لابسون كاتمون فانه اقبح اذ الجاهل يعذر (مجلد ١ وجه ٧٦ و٧٧)

وفي الجلالين «تخلطون الحق الذي انزلت عليكم بالباطل الذي تغيرونه وتكتمون الحق نعت محمد وأنتم تعلمون» (جزء اول وجه ٩)

(ملاحظة) انك ترى اتفاق هؤلاء المفسرين العظام لهذه الآية ان التلبيس والكتمان كانا بالتأويل والاخفاء فيستحقون منا على ذلك طيب الثناء وعليه فنقول اذا كان اهل الكتاب وهم يعلمون امر محمد في كتابهم اي نعته وصفته (كما سترى في تفسير الآيات التالية) ولم يقدموا ولا اسلافهم على نزع ذلك منه او تحريفه فقط اقتصروا على تشويش تلك الدلائل على السامع

ينتج من ذلك انهم كانوا أمناء على كتابهم كما أنزله تعالى وان قول بعض عامة المسلمين بتحريف الكتاب لفظاً هو لقول ساقط لايستحق ان يعار شيئاً من الاعتبار

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ «البقرة آية ٧٦»

(التفسير) في تفسير هذه الآية آراء ووجوه كثيرة نجتزي بذكر أشهرها مايخصا . زعموا ان محمداً وأصحابه طمعوا في اقتياد يهود المدينة الى الاسلام كما يروون ان محمداً حين دخل المدينة ودعى اليهود الى كتاب الله وكذبوه انزل الله تعالى هذه الآية واختلفوا في الفريق منهم فمنهم من قال هو من كان في أيام موسى ومنهم يل المراد بالفريق من كان في زمن محمد عليه الصلاة والسلام والامام الرازي يقول ان هذا أقرب لان الضمير في قوله تعالى «وقد كان فريق منهم» راجع الى ما تقدم وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله «أفتطمعون ان يؤمنوا لكم» واختلفوا في كلمة ثم يحرفونه فقال بعضهم ان التحريف اما ان يكون في اللفظ أو في المعنى وحمل التحريف على تغيير اللفظ اولى من حمله على تغيير المعنى . . . وان لم يكن ذلك فيجب ان يحمل على تغيير تأويله وان كان التنزيل ثابتاً وانه يمتنع ذلك اذا ظهر كلام الله ظهوراً متواتراً كظهور القرآن فاما قبل أن يصير كذلك فغير ممتنع تحريف نفس كلامه . . . الى ان يقول وأما ان قلنا بان المحرفين هم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام فالاقرب انهم حرفوا مالا يتصل بامر محمد (صلى الله عليه وسلم) واما ان قلنا ان المحرفين هم الذين كانوا في زمن محمد (صلى الله عليه وسلم) فالاقرب ان المراد تحريف امر محمد وذلك اما انهم حرفوا نعت الرسول وصفته أو لانهم حرفوا الشرائع كما حرفوا آية الرجم . وظاهر القرآن لا يدل على انهم أي شيء حرفوا

«من بعد ما عقلوه وهم يعلمون» فلقائل يقول قوله تعالى عقلوه وهم يعلمون تكرار لا فائدة فيه أجاب القفال عنه من وجهين (الاول) من بعد ما عقلوا مراد الله فأوّلوه تأويلاً فاسداً يعلمون انه غير مراد الله تعالى (الثاني) انهم عقلوا مراد الله تعالى وعلموا ان التأويل الفاسد يكسبهم الرزء والعقوبة من الله تعالى (رازي مجلد اول وجه ٥٧٣ — ٥٧٦)

وتفسيرها في البيضاوي هو فريق منهم طائفة من اسلاف اليهود «يسمعون كلام» يعني التوراة «ثم يحرفونه» كنعت محمد وآية الرجم أو تأويله فيفسرونه بما يشتهون «من بعد ما عقلوه» أي فهموه بعقولهم ولم يبق لهم فيه ريبة «وهم يعلمون» انهم مفترون مبطلون ومعنى الآية ان احبار هؤلاء ومقدميهم كانوا على هذه الحالة فما طمعك بسفلتهم وجهالهم وانهم وان كفروا وحرفوا فلهم سابقة في ذلك (مجلد اول وجه ٩١)

(ملاحظة) انه وان يكن ما تقدم في الآية الاولى وتأويلها كافياً لبيان عدم تحريف الكتاب فلابد لنا من الملاحظة على كل آية ترد في هذا الباب لتنوع الآيات وتلون تفسيرها . انك ترى ان كلا الرازي والبيضاوي متفقان على ان التحريف المذكور بالآية انما هو التأويل الفاسد والاخفاء ويختلفان في ذلك الفريق المحرّف فان الرازي يذهب انه كان في زمن محمد والبيضاوي انه طائفة من اسلاف اليهود معاصري محمد فسواء كانوا يهودا في زمن محمد او اسلافهم المسئلة واحدة من جهة التحريف وهي انهم كانوا يحرفون كلام الله بتأويله او اخفائه كما في مسئلة آية الرجم لا بتغيير وتبديل الالفاظ في مواضعها حسبما ذهب بعضهم أي امكان وقوع ذلك قبل ظهور كلام الله ظهوراً متواتراً الذي سنبين بطلانه فيما يأتي

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ كِتَابَ ٱللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ «البقرة آية ١٠٢»

(التفسير) خلاصته ان المنبوذ من الذين أوتوا الكتاب هو التوراة فان قيل كيف يصح نبذهم للتوراة وهم يتمسكون به قلنا اذا كان يدل على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لما فيه من النعت والصفة وفيه وجوب الايمان ثم عدلوا عنه كانوا نابذين للتوراة اما قوله تعالى «كانهم لايعلمون» فدلالة على انهم نبذوه عن علم ومعرفة لانه لايقال ذلك الا فيمن يعلم فدلت الآية من هذه الجهة على ان هذا الفريق كانوا عالمين بصحة نبوته الا انهم جحدوا ما يعلمون (الرازي مجلد اول وجه ٦٣٤ و٦٣٥)

وتفسيرها من الجلالين «رسول من عند الله» محمد صلى الله عليه وسلم الكتاب التوراة نبذوها اي لم يعلموا بما فيها من الايمان بالرسول وغيره كأنهم لا يعلمون من انه نبي حق او انها كتاب الله (جزء اول وجه ٦ و١٧)

(ملاحظة) انك ترى والحمد لله ان كل آية في هذا الباب .صداق لما سلفها بعدم تحريف الكتاب فان هذه الآية المؤولة تعلن لذي البصيرة ان نبذ بعض اهل الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم انما هو عدو لهم عما تضمن من الدليل على نبوة محمد حسبما يزعمون او جحود ما هم يعلمونه من هذه الحيثية لا نزعه من كتابهم فكأن محمداً لما اكد عدم تحريف اهل الكتاب كتابهم رشقهم بالتابيس والكتمان والنبذ اي التأويل الفاسد لتشويش الدلائل والكتمان والعدول والاغضاء عما يرونه في كتابهم من الدلالة عليه وهو اكفى بيان لاهل القرآن على عدم مس الكتاب بحريف ما

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «البقرة آية ١٧٥»

(التفسير) زعموا ان هذه الآية نزلت في اليهود قال ابن عباس نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود ككعب ابن الاشرف وكعب ابن اسد ومالك ابن

الصيف وحيي ابن اخطب وابي ياسر ابن اخطب كانوا يأخذون من اتباعهم الهدايا فلما بعث محمد عليه السلام خافوا انقطاع تلك المنافع فكتموا امر محمد عليه السلام وامر شرائعه فنزلت هذه الآية واختلفوا في انهم اي شيء كانوا يكتمون فقيل كانوا يكتمون صفة محمد (صلى الله عليه وسلم) ونعته والبشارة به وهو قول ابن عباس وقتادة والسدي والاصم وابو مسلم واختلفوا في كيفية الكتمان فالمروي عن ابن عباس انهم كانوا محرفين يحرفون التوراة والانجيل وعند المتكلمين هـذا ممتنع لانهما كانا كتابين بلغا في الشهرة والتواتر الى حيث يتعذر ذلك فيهما بل كانوا يكتمون التأويل لانه قد كان فيهم من يعرف الآيات الدالة على نبوة محمد عليه السلام وكانوا يذكرون لها تأويلات باطلة ويصرفونها عن محاملها الصحيحة الدالة على نبوة محمد فهذا هو المراد من الكتمان فيصير المعنى ان الذين يكتمون معاني ما انزل الله من الكتاب (الرازي مجلد ثاني وجه ١٣٢و١٣٣)

وتفسيرها في الجلالين هو ان الذين يكتمون من التوراة نعت محمد وهم اليهود ويشترون به ثمناً قليلاً من الدنيا يأخذونه بدله من سفلتهم فلا يظهرونه خوف فوته عليهم يكون مآلهم النار (جزء اول وجه ٢٨)

(ملاحظة) لك في تأويل هذه الآية امران خطيران (الاول) ان تحريف التوراة والانجيل ممتنع لبلوغهما مبلغ الشهرة والتواتر بحيث يتعذر ذلك فيهما (الثاني) كتمان المعاني من آيات الكتاب بتأويلها تأويلاً فاسداً يصرفها عن محاملها الصحيحة فهذان الامران هما فصل الخطاب على ان اهل الكتاب ليس فقط لم يقدموا على تحريف كتابه تعالى بل كانوا امناء على حفظ آياته كما انزلت . واذا كان علماء اليهود واشرافهم حسب الآية وتأويلها يكتمون ما في التوراة من صفة محمد ونعته والبشارة به خوفاً من سقوط اعتبارهم في عيون العامة وانقطاع المنافع الجارية عليهم يتضح من ذلك ان القوم لم يتجرأوا على تحريف آية من كتابهم وربما لم يخطر لهم ذلك ببال فلم يبق لهم حسب تأويل الآية الا الكتمان وهو اما كتمان الكلمات حسب تأويل الآيات المتقدمة او

كتمان المعاني حسب تأويل هذه الآية واذا كان علماء الاسلام بعد محمد ادركوا مراد الآيات هكذا فكم بالاولى محمد علم سلامة الكتاب من التحريف فقال «يا اهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وانتم تشهدون» اي تنكرونها على من لم يسمعها وانتم عالمون بها شاهدون لها

يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وأَنْتُم تَشْهَدُونَ «آل عمران آية ٧١»

(التفسير) في قوله بآيات الله وجوه خلاصتها (الاول) المراد منها الآيات الواردة في التورارة والانجيل المبشرة بمحمد عليه السلام (الثاني) انهم كانوا كافرين بنفس التوراة لانهم كانوا يحرفونها وكانوا ينكرون وجود تلك الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم واما قوله وانتم تشهدون فالمعنى على هذا القول انهم عند حضور المسلمين وعند حضور عوامهم كانوا ينكرون اشتمال التوراة والانجيل على الآيات الداله على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثم اذا خلا بعضهم مع بعض شهدوا بصحتها ومثله قوله تعالى تبغونها عوجاً وانتم شهداء (الرازي مجلد ثاني وجه ٧٠٨)

(ملاحظة) يفهم من هذه الآية وتأويلها ان اهل الكتاب لم ينسخوا من كتاب الله الآيات التي يزعم محمد انها تعنيه وتبشر به ولا انهم حرفوها لانهم حسب الآية كانوا يكفرون بها اي ينكرونها وهم يشاهدونها في كتابهم وذلك لا يبقي محلاً لتهمة اهل الكتاب بتحريف كتابهم ولو كان من شيمهم تحريف الكتاب لكانوا بالاولى ازالوا منه تلك الآيات المزعوم انها انباء عن محمد وبشرى به او بدلوها عوض انكارهم اياها وهم يشاهدونها ولانهم لما لم يفعلوا ذلك يتضح انهم كانوا محافظين بكل حرص واعتناء على سلامة الكتاب كما انزل من عند الله

وَإِنْ مِنْهُم لَفَرِيقاً يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ

اَلْـكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ اَلْـكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اَللّٰهِ اَلْـكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ «آل عمران آية ٧٩»

(التفسير) ان هذه الآية نازلة في حق اليهود وهي معطوفة على ما قبلها واعلم ان اللي عبارة عن عطف الشيء ورده عن الاستقامة الى الاعوجاج وذهب بعضهم بان اللي باللسان عبارة عن تحريف اللفظ في حركات الاعراب الى ان يقول ههنا سؤالات (السؤال الاول) الى ماذا يرجع الضمير في قوله لتحسبوه الجواب الى ما دل عليه قوله يلوون ألسنتهم وهو المحرف (السؤال الثاني) كيف يمكن ادخال التحريف في التوراة مع شهرتها العظيمة بين الناس الجواب لعله صدر هذا العمل عن نفر قايل يجوز عليهم التواطوء على التحريف ثم انهم عرضوا ذلك المحرف على بعض العوام وعلى هذا التقدير يكون التحريف ممكناً والاصوب عندي (الرازي) في تفسير الآية وجه آخر وهو ان الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كان يحتاج فيها الى تدقيق النظر وتأمل القلب والقوم كانوا يوردون عليها الاسئلة المشوشة والاعتراضات المظلمة فكانت تصير تلك الدلائل مشتبهة على السامعين واليهود كانوا يقولون مراد الله من هذه الآيات ما ذكرناه لا ما ذكرتم فكان هذا هو المراد بالتحريف وبلي الالسنة وهذا مثل ما ان المحق في زماننا اذا استدل بآية من كتاب الله تعالى فالمبطل يورد عليه الاسئلة والشبهات ويقول ليس مراد الله ما ذكرت فكذا في هذه الصورة (مجلد ثاني وجه ٧٢٠ و٧٢١)

وتفسيرها في الجلالين هو وان منهم اي اهل الكتاب لفريقاً طائفة ككعب ابن الاشرف يلوون ألسنتهم بالكتاب اي يعطفونها بقراءته عن المنزل الى ما حرفوه من نعت النبي ونحوه لتحسبوه اي المحرف من الكتاب الذي نزله الله وما هو منه ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون انهم كذابون (جزء اول وجه ٦٤)

(ملاحظة) ان هذه الآية بينة المعنى الى حد تستغني به عن التأويل وهي من نوع الآية سالفتها قد بينت نوع تحريف بعض اليهود للتوراة وهو لفظ الكلام باللسان بخلاف ما هو في التوراة لان هذا الفريق كان على حسب الآية يعلم انه بذلك يقول الكذب على الله او هو يعلم ان آيات التوراة خلاف ما يقول وهذا ايضاً دليل راهن على عدم اقدام اهل الكتاب على تحريف كتابهم وانا نثني على الامام الرازي ونمدح ذكائه لانه لم ينخرط في سلك اهل الغباوة كالذين يجيبون على السؤال الثاني في تفسير الآية بقولهم الواهي السخيف لعلّ هذا العمل صدر عن نفر قليل يجوز عليهم التواطوء على التحريف ثم انهم عرضوا ذلك المحرف على بعض العوام وعلى هذا التقدير يكون التحريف ممكناً فنجيب مثل هؤلاء (اولا) انه لا يعول على قضية مبنية على لعل وربما لخلوها من الدليل والبرهان (ثانياً) لان تقديرهم هذا يطابق بالاولى على جامعي القرآن فما وجهوه على اهل التوراة تحت لعل يتوجه طبعاً على اهل القرآن لان جامعيه كانوا نفراً قليلاً (ثالثاً) نسألهم من هم ذلك النفر القليل الذي حسب زعمهم لعل صدر عنهم تحريف التوراة فليبينوه لنا ان قدروا . ابهذا المقدار يجهلون تاريخ بني اسرائيل حتى لا يعلموا ان موسى قبل ان انزلت عليه التوراة كان تحت رئاسته وقيادته نحو المليونين منهم وقد كتب لهم التوراة وكانت تتلى عليهم في حياته مدة اربعين سنة وقد وليه يشوع بن نون وعدد من الانبياء هم اصحاب الاسفار النبوية اذاً لعلهم هذه لامحل لها وشهرة التوراة وتواترها يمنع ادخال التحريف فيها ويكفينا مؤدى المتكلمين في تأويل هذه الآية ان هذا الفريق المشار اليه فيها كانوا يحرفون الآيات بالسنتهم لالوائها او ردها من استقامتها او جعلها مشتبهة على السامعين بالاسئلة المشوشة والاعتراضات المظلمة وان هذا هو المراد بالتحريف وبليّ الالسنة فتأمل

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا •

تَكتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِم وَاشتَرَوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئسَ مَا يَشتَرُونَ «آل عمران آية ١٨٨»

(التفسير) خلاصته ان امتي موسى وعيسى لايذاء محمد كانوا يكتمون ما في التوراة والانجيل من الدلائل الدالة على نبوته فكانوا يحرفونها او يذكرون لها تأويلات فاسدة والمراد من النهي والكتمان ان لا يقولوا فيها التأويلات الفاسدة والشبهات المعطلة (الرازي مجلد ٣ وجه ١٦٨ و ١٦٩)

وتفسيرها في الجلالين هو ان الله اخذ العهد على بني اسرائيل في التوراة التي اتاهم ليبينوه للناس ولا يكتمونه او ولا تكتمونه (قراءتين) فطرحوه ولم يعلموا به آخذين بدله ثمناً قليلاً من سفلتهم برئاستهم في العلم فكتموه خوف فوته عليهم فبئس شراؤهم هذا (جزء اول وجه ٧٨)

(ملاحظة) انا لا نرى محمداً يطعن البتة بسلامة الكتاب التوراة والانجيل ولا يسمي اليهود والنصارى الا اهل الكتاب وقط لم يقل لهم ان هذه التوراة ليست هي التي انزلت على موسى وهذا الانجيل ليس هو الذي انزل على عيسى كما يهذر بعض جهلاء لمسلمين في هذا العصر انما فقط يرميهم بالتابيس والكتمان والاخفاء للدلائل التي يزعم انها تدل على نبوته وتبشر به كما يقول الامام في تفسير الآية السالفة وهو ان لآيات الدالة على نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) كان يحتاج فيها الى تدقيق النظر وتأمل القلب والقوم (يعني اهل الكتاب) كانوا يوردون عليها الاسئلة المشوشة والاعتراضات المظلمة فينتج من ذلك امران الاولى ان ليس لمسلم ان يرمي اهل الكتاب بتحريفهم كتابهم (الثاني) ان ذلك يوجب عليه اقتناء التوراة والانجيل الكائنين بيد اليهود والنصارى والانعكاف على دراستهما ككتاب الله بتدقيق النظر والتأمل والاحترام وعليه فيكون المعول عليه في الاستدلال على نبوة محمد الكتاب المقدس الكائن بيدي الطائفتين المذكورتين وليس ذلك فقط بل يلزم المسلم الاخذ بما فيه والقيام به

مِنَ ٱلَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا «النساء آية ٤٥»

(التفسير) نقتصر في ذلك على جملة يحرفون الكلم عن مواضعه. في تفسير هذه الجملة رأيان أو مذهبان أحدهما انهم كانوا يبدلون اللفظ بلفظ آخر مثل تحريفهم اسم ربعة عن موضعه في التوراة بوضعهم آدم طويل مكانه. فان قيل كيف يمكن هــذا في الــكتاب الذي بلغت آحاد حروفه وكلماته مبلغ التواتر المشهور في الشرق والغرب قانا لعــلّ يقال ان القوم كانوا قايلين والعلمـاء بالكتاب غاية في القلة فقدروا على هذا التحريف. والثاني ان المراد بالتحريف القاء الشبهة الباطلة والتأويلات الفاسدة وصرف اللفظ عن معناه الحق الى معنى باطل بوجوه الحيل اللفظية كما يفعله أهل البدعة في زماننا هذا بالآيات المخالفة لمذهبهم وهذا هو الاصح. ومن الآراء في ذلك انهم كانوا يدخلون على النبي صلى الله عليه وسلم ويسألونه عن أمر فيخبرهم ليأخذوا به فاذا خرجوا من عنده حرفوا كلامه (الرازي مجلد ٣ وجه ٣٣٧ و٢٣٨)

وتفسيرها في الجلالين «يحرفون الــكلم عن مواضعه» أي يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها اما لفظاً باهماله أو تغيير وضعه واما معنىً بحمله على غير المراد واجرائه في غير مورده (مجلد أول وجه٢٢٨)

... يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ «سورة المائدة آية ١٤»

(التفسير) يحرفون الكلم عن مواضعه أي من بعد ان وضعه الله مواضعه أي فرض فروضه وأحل حلاله وحرّم حرامه . قال المفسرون ان رجلاً

وامرأة من اشراف خيبر زنيا وكان حد الزنا في التوراة الرجم فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما فارسلوا قوماً الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسألونه عن حكمه في الزانيين اذا احصنا وقالوا ان امركم بالرجم فاحذروا ولا تقبلوا فلما سألوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن ذلك نزل جبريل بالرجم فأبوا ان يأخذوا به فقال له جبريل عليه السلام اجعل بينك وبينهم ابن صوريا فقال الرسول هل تعرفون شاباً امرد ابيض اعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا قالوا نعم وهو اعلم يهودي على وجه الارض فرضوا به حكماً فقال له الرسول (صلى الله عليه وسلم) انشدك الله الذي لااله الا هو الذي فاق البحر لموسى ورفع فوقكم الطور وانجاكم واغرق آل فرعون والذي أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هل تجدون فيه الرجم على من احصن قال ابن صوريا نعم فوثبت عليه سفلة اليهود فقال خفت ان كذبته ان ينزل علينا العذاب ثم أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالزانيين فرجما عند باب مسجده اذ عرفت القصة فنقول قوله يحرفون الكلم عن مواضعه اي وضعوا الجلد مكان الرجم (الرازي مجلد ثالث وجه ٥٩٨)

(ملاحظة) انك ترى في تفسير هاتين الآيتين اللتين هما شيء واحد ثلاثة مذاهب (الاول) ابدال اللفظ بلفظ آخر (الثاني) التأويل الفاسد (الثالث) الكتمان والاخفاء اما الاول فهو ساقط راجع وجه ٥٥و٥٦ غير ان فيه أمراً يستدعي النظر وهو مسئلة قامة ابينا آدم واني لاعجب كيف رضي لانفسهم هؤلاء القائلون بقول بان زيفه كما تبدو الشمس لذي بصر فاين يوجد في التوراة ان آدم كان طويل القامة هل اتوا ذلك من باب الظن او على قول من قال من أهل الخرافة والغباوة فاتخذوه دليلاً على تحريف أهل الكتاب كتابهم وكان الاجدر بهم ان يتصفحوا التوراة اولاً ليروا أصحيح ما قيل ام لا فلا يلقون بانفسهم في وهدة الخذل هكذا . فالحمد لله ان هذا هو الشيء الوحيد الذي زعموا تحريفه لفظاً في التوراة حال كونه لا وجود له فيها البتة وما يدعو الى وفرة التعجب عدم انتباه هؤلاء الى مفاد الآيات القرآنية بهذا

الشأن الذي هو ان اهل الكتاب كانوا يشهدون في كتابهم الآيات المبشرة بمحمد فكانوا اما يلبسونها بالباطل اي بالتأويل الفاسد او يخفونها عن الآخرين وذلك لا يدع قط سبيلاً لتهمة اهل الكتاب بتحريف كتابهم لا في الاول ولا في الآخر ولو كان وقع التحريف اللفظي في الكتاب لذكره القرآن ولما رمى اهله بالتلبيس والكتمان والاخفاء كما قد رايت وان القائلين بتقدير امكان تحريف التوراة يلوح لك من مقالهم انهم غير واثقين به لاسنادهم اياه الى حرف لعلّ

وهو تقدير غاية في الوهن والضعف قد الجأهم اليه شدة الافتقار والعوز فلا نؤاخذهم كثيراً وان الامام وغيره من ذوي النبالة لم يعيروا هذا المقال شيئاً من الاعتبار كما رأيت. بقي ان تحريف الكلم عن مواضعه هو القاء الشبه الباطلة عليه والتأويلات الفاسدة والاخفاء كما في مسئلة الزانيين المذكورين او أيضاً تحريفهم كلام محمد بعد خروجهم من عنده حسب الرأي الاخير في تفسير الآية الاولى من الرازي (وجه ٧٢)

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ ٱلتَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَمَا أُولٰئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ «المائدة آية ٤٦»

(التفسير) ملخصه ان هذا تعجب من الله على تحكيمهم محمداً حال كون الحكم في الزاني هو في التوراة عندهم وذلك من وجه دليل عنادهم وغيهم اذ يعدلون عن حكم الله في كتابهم الى حكم محمد طالباً للرخصة بعدم الرجم ومن وجه عدولهم عن حكم يعتقدونه من الله الى حكم من يعتقدون فيه بطلان دعواه بالرسالة والنبوة (الرازي مجلد ثالث وجه ٦٠٠)

وتفسيرها في الجلالين هو وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله بالرجم استفهام تعجب اي لم يقصدوا بذلك معرفة الحق بل ما هو اهون عليهم ثم يتولون (يعرضون) عن حكمك بالرجم الموافق لكتابهم من بعد ذلك

التحكيم وما اولئك بالمؤمنين انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور اي هدى من الضلالة وبيان للاحكام (جزء اول وجه ١١٧)

(ملاحظة) ان هذه الآية مع تفسيرها تأتينا بثلاثة امور حرية بالاعتبار (الاول) شهادتها لليهود بأن عندهم التورة فيها حكم الله وهذه الشهادة قاطعة لكل قول بتحريف التوراة وما من مسلم ذي نيرة الا ويرى انه لو شاب التوراة تحريف ما منهم لما كان نص الآية وعندهم التوراة فيها حكم الله (الثاني) لكون التوراة التي عند اليهود فيها حكم الله وفيها هدى ونور فهي لا مراء تغنيهم عن تحكيم محمد او غيره واذا كانت تغنيهم عن تحكيمه في امر الزانيين فهي تغنيهم ايضاً عن تحكيمه في امر تحتاجه انفسهم لان فيها هدى من الضلالة (الثالث) اذا كان اليهود ما حكموا محمداً الا لامل ان يحكم في تلك المسئلة بما هو اهون عليهم من حكم التوراة فيظهر انهم لم يمسوها بتحريف ما ولو نافت احكامها اهواءهم او لم يكن لهم سبيل الى ذلك لتواترها المشهور شرقاً وغرباً والشهادة على ذلك «وعندهم التوراة» فتأمل ان التوراة التي فيها حكم الله هي عند اليهود وهي كلمة تنزهها عن كل تحريف وتبديل فتنبه

وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ «المائدة آية ٥٠»

(التفسير) يقول — فان قيل كيف جاز ان يؤمروا بالحكم بما في الانجيل بعد نزول القرآن قلنا الجواب عنه من وجوه (الاول) ان المراد ليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه من الدلائل الدالة على نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو قول الاصم (الثاني) وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه مما لم يصر منسوخاً بالقرآن (الثالث) المراد من قوله وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه زجرهم عن تحريف ما في الانجيل وتغييره مثل ما فعله اليهود من اخفاء احكام التوراة فالمعنى بقوله «ليحكم اهل الانجيل» اي وليقرأ اهل الانجيل بما انزل الله فيه

على الوجه الذي انزل الله فيه من غير تحريف ولا تبديل (الرازي مجلد ثالث وجه ٦٠٧)

(ملاحظة) لا يخفى على القاري العزيز ما في هذه الآية من بيان سلامة الانجيل في زمان محمد من التحريف والتصحيف كونها حثاً لاهله على الحكم بما انزل الله فيه . والقول بأن يراد بذلك الدلائل الدالة على نبوة محمد فما هو الا تعزيز لبيان عدم تحريفه اذ لو كان محرفاً لما كانت الآية وليحكم اهل الانجيل بما أنزل الله فيه يعني الدلائل المشار اليها. ولما كان ذلك زجراً لهم عن تحريفه كما فعل اليهود من اخفاء احكام التوراة . والخلاصة ان لك في الآية دليلين راهنين (الاول) سلامة الانجيل من شائبة التحريف (الثاني) وجوب الاعتماد عليه والاخذ بما فيه واذا وجب ذلك على اهل الانجيل وجب على اتباع محمد أيضاً لينظروا فيه ويحكموا بما انزل الله ليس فقط بخصوص الآيات المزعوم أنها دالة على نبوة محمد بل أيضاً بخصوص الشهادات البينة ليسوع المسيح لانه بعد هذه البينات القرآنية على عدم تحريفه مما ذكرنا ومما سيأتي لايجوز للمسلم ان يعتبر آياته دون بعض بل عليه اعتباره بكل اجزائه انجيل الله للعمل به والايمان بما انزل الله فيه

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللهِ وَٱللهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ «الجمعة آية ٥»

(التفسير) ماخصه حملوا التوراة كلفوا العمل بها ثم لم يحملوها لم يعملوا بما فيها من نعته صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا به .

كمثل الحمار يحمل اسفاراً اي كتباً في عدم انتفاعه بها بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله المصدقة للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) (الجلالين جزء ثاني وجه ٣٣٨)

وتفسيرها في الرازي هو انه تعالى ضرب هذا المثل للذين اعرضوا عن العمل بالتوراة والايمان بالنبي عليه السلام والمقصود منه انهم لما لم يعملوا بما في التوراة شبهوا بالحمار لانهم لو عملوا بمقتضاها لانتفعوا بها ولم يوردوا تلك الشبه وذلك لان فيها نعت الرسول عليه السلام والبشارة بمقدمه والدخول في دينه . وقوله حملوا التوراة اي حملوا العمل بما فيها وكلفوا القيام بها وقيل حملوا بالتخفيف والمعنى ضمنوا احكام التوراة ثم لما لم يضمنوها ولم يعملوا بما فيها ... شبه اليهود اذ لم ينتفعوا بما في التوراة وهي دالة على الايمان بمحمد (صلى الله عليه وسلم) بالحمار الذي يحمل الكتب العلمية ولا يدري ما فيها وقال أهل المعاني هذا المثل مثل من يفهم معاني القرآن ولم يعمل به واعرض عنه اعراض من لا يحتاج اليه (مجلد ثامن وجه ٢٠٤)

(ملاحظة) انه لواضح ان هذه الآية هي بحق يهود زمان محمد وهي تبين انهم أمنوا على التوراة كاباًهم وكانوا امناء على حفظها سالمة كما أنزلت لان تشبيههم في هذا المثل بالحمار الحامل اسفاراً لا يدري ما فيها ولا ينتفع بها دلالة على عدم مسهم التوراة بتحريف ما لان الحمار الحامل اسفاراً لا يتعرض لها بشيء من مثل ذلك ولا يستطيعه . وعليه فهم لم يتعرضوا للتوراة باذى انما حسب الآية كذبوا بآيات الله فيها يعني التي تدل على محمد وحسب التفسير لم يعملوا بما فيها بل اوردوا الشبه على تلك الآيات الدالة عليه والمبشرة بمقدمه فاي بيان يا ترى اجلى من هذا البيان على عدم مس اليهود توراتهم بتحريف ما . واذا كان ذلك كذلك فالتوراة لم تزل اليوم كما كانت يومئذ وهي باللغة العربية كما بالعبرانية فليبادر المسلمون الى دراستها وفحص تلك الدلائل فيها المزعوم انها تعني محمداً مع اعتبار قراءتها وامثالها من الآيات النبوية والاشارات الرمزية الشرعية فيها بالاخلاص وخلو الغرض فانهم لا جرم يرونها لا تخص قط محمداً وهي تبعد عن قصده بعد السموات عن الارض . وبعد فانا مديونون للقرآن على وفرة شهاداته لسلامة التوراة والانجيل واقراره باننا أهل الكتاب ليس كأن كتابنا او نحن مفتقرون الى مثل

هذه الشهادة بل لاجل تنوير وافادة ابناء جلدتنا المسلمين ليشاركونا في اعتناق كتاب الله للقيام به والايمان بما انزل الله فيه

اَلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ «الانعام مكية آية ٢٠»

(التفسير) اعلم ان ظاهر هذه الآية يقتضي ان يكون علمهم بنبوة محمد عليه السلام مثل علمهم بابنائهم وفيه سؤال وهو ان يقال المكتوب في التوراة والانجيل مجرد انه سيخرج نبي في آخر الزمان يدعو الخلق الى الدين الحق او المكتوب فيه هذا المعنى مع تعيين الزمان والمكان والنسب والصفة والحلية والشكل وان كان الاول فذلك القدر لا يدل على ان ذلك الشخص هو محمد عليه السلام . فكيف يصح ان يقال علمهم بنبوته مثل علمهم ببنوة ابنائهم وان كان الثاني وجب ان يكون جميع اليهود والنصارى عالمين بالضرورة من التوراة والانجيل بكون محمد نبياً من عند الله تعالى والكذب على الجمع العظيم لا يجوز لانا نعلم بالضرورة ان التوراة والانجيل ما كانا مشتملين على هذه التفاصيل التامة الكاملة لان هذا التفصيل اما ان يقال انه كان باقياً في التوراة والانجيل حال ظهور الرسول عليه السلام او يقال انه ما بقيت هذه التفاصيل في التوراة و لانجيل في وقت ظهوره لاجل ان التحريف قد تطرق اليهما قبل ذلك والاول باطل لان اخفاء مثل هذه التفاصل التامة في كتاب وصل الى اهل الشرق والغرب ممتنع. والثاني ايضاً باطل لان على هذا التقدير لم يكن يهود ذلك الزمان ونصارى ذلك الزمان عالمين بنبوة محمد علمهم ببنوة ابنائهم وحينئذ يسقط هذا الكلام. والجواب عن الاول ان يقال المراد بالذين أتيناهم الكتاب اليهود والنصارى وهم كانوا اهلاً للنظر والاستدلال وكانوا قد شاهدوا ظهور المعجزات على الرسول (صلى الله عليه وسلم) فعرفوا بواسطة تلك المعجزات كونه رسولاً من عند الله. والمقصود من تشبيه احدى المعرفتين بالمعرفة الثانية هذا القدر الذي ذكرناه (الرازي مجلد ٤ وجه ٢١ و٢٢)

(ملاحظة) لقد احسن الامام باقراره ان التوراة والانجيل ما كانا مشتملين على وصف محمد ونسبه وشكله والزمان والمكان اللذين ينبغ فيهما وعليه يسقط الكلام انهم كانوا عالمين بنبوة محمد مثل علمهم بنبوة ابنائهم بقي جوابه المعتبر تفسيراً صحيحاً للآية وهو كما يرى يشتمل على ثلاث قضايا(الاولى) ان اليهود والنصارى كانوا اهلاً للنظر والاستدلال (الثانية) انهم كانوا قد شاهدوا ظهور المعجزات على الرسول (الثالثة) كنتيجة الاولين وهي فعرفوا بواسطة تلك المعجزات انه رسول الله فلننظر الى كل من هذه القضايا على حدتها فعلى الاولى أقول اذا كان أهل الكتاب في زمان محمد أهلاً للنظر والاستدلال فذلك ينافي نص الآية السالفة بانهم شبهوا بالحمار الحامل كتباً لا يدري ما فيها فعجباً كيف كانوا يعرفون محمداً كنبي الله ورسوله من كتابهم ومع ذلك كانوا لا يدرون ما فيه كما لا يدري البهيم ما في الكتب المحملة على ظهره . هل من اختلاف اعظم من هذا الاختلاف فاية الآيتين هي الصائبة وايتهما المخطئة. وبعد فاقول اذا كان اهل الكتاب أهلاً للنظر والاستدلال في كتابهم ولم يستدلوا به على محمد ينتج انهم ما عرفوه نبياً ورسولاً كمعرفتهم ابناءهم لان من هو الذي يعرف ابنه وينكره الا العديم الانسانية والمرؤة وذلك لا يصح على الجمع الكثير . وعلى الثانية اقول من اين شاهد اهل الكتاب ظهور المعجزات على محمد وهو لم يأت بمعجزة ما كما قد رأيت في الباب الاول . فعار على الامام ان يتلاعب هذا التلاعب الصبياني وما كان جديراً به مثل هذه المغالطة التي لا تجوز على من له اقل المام في دين الاسلام وعلى الثالثة اقول انها ساقطة بسقوط الثانية لان اهل الكتاب ما راوا لمحمد معجزات وبالتالي ما عرفوه أنه نبي الله ورسوله وعليه يرى ان القول يعرفونه كما يعرفون أبناءهم اما هو من باب الحدس والتخمين أو هو مبني على اقرار الذين كانوا اسلموا من اليهود كعبدالله بن سلام وكعب الاحبار وغيرهم الذين قال احدهم وهو ابن سلام المذكور بحضرة عمر بن الخطاب اذ دار الحديث بخصوص مراد هذه الآية اني اعرف محمداً نبي الله ورسوله

معرفة اعظم من معرفتي بابني فقال له عمر وكيف ذلك فقال اما ابني فلعل امه خائنة به واما محمد فاعرفه انه رسول الله فنهض عمر وقبله بين عينيه على ان اقرار المذكورين ليس هو اقرار امة لا سيما وهم مسلمون الذين طبعاً ينتظر منهم مثل هذا القول الذي يختص بهم دون غيرهم ثم ان نص الآية الذين آتيناهم الكتاب الخ ... هو شهادة ثمينة على امانة اهل الكتاب على كتابه تعالى وحفظه كما انزل. وبعد فلقد اجاد الامام ببيانه على سبيل السؤال على اسلوب منطقي عدم معرفة اهل الكتاب محمداً كنبي الله ورسوله كمعرفتهم ابناءهم وشفافة النص على عدم مس اهل الكتاب كتابهم بتحريف ما ولان البيان المذكور غاية في المتانة وغير قابل الدحض ولما كان الامام كرجل مسلم يبغي التخلص منه كيف كان لجأ الى الجواب المذكور الذي ليس فقط لم يغنه شيئاً بل نتج منه نفس النتيجة من ذلك البيان وهي عدم معرفة اهل الكتاب محمداً كما يعرفون ابناءهم فكأن الامام رام به تعزيز ذلك البيان لاضعافه فتأمل

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ فَاسْأَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَأُونَ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ «يونس آية ٩٤»

(التفسير) ان في تفسير هذه الاية مسائل ووجوه مختلفة لا يسعني ذكر جميعها ولو على سبيل الاختصار فاذكر اهمها ملخصاً. من ذلك زعم فريق ان هذا الخطاب ليس هو لذات النبي وغيرهم بل هو للنبي فمن قال انه للنبي قالوا ان الخطاب مع النبي في الظاهر والمراد غيره كالمثل المشهور (اياك اعني واسمعي ياجاره) وعلى ذلك وجوه مختلفة . والذين ذهبوا انه لغير النبي قرروا ان الناس في زمانه كانوا فرقاً ثلاثاً اي المصدقون به والمكذبون له والمتوقفون في امره الشاكون فيه فخاطبهم الله بهذا الخطاب فقال ان كنت ايها الانسان في شك مما انزلنا اليك من الهدى على لسان محمد فاسأل اهل الكتاب ليدلوك على صحة

نبوته . فاختلفوا في المسؤول من اهل الكتاب كعبد الله بن سلام وعبد الله ابن صوريا وتميم الداري وكعب الاحبار ومنهم من قال الكل سواء كانوا من المسلمين او من الكفار فان قيل اذا كان مذهبكم ان هذه الكتب قد دخلها التحريف والتغيير فكيف يمكن التعويل عليها قلنا انها انما حرّفوها بسبب اخفاء الآيات الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فان بقيت فيها ايات دالة على نبوته كان ذلك من اقوى الدلائل على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لانها لما بقيت مع توفر دواعيهم على ازالتها دل ذلك على انها كانت في غاية الظهور ومن الوجوه في التفسير على ان هذا الخطاب هو لمحمد وهو ان محمداً كان من البشر وكان حصول الخواطر المشوشة والافكار المضطربة في قلبه من الجائزات وتلك الخواطر لا تندفع الا بايراد الدلائل وتقرير البينات فهو تعالى انزل هذا النوع من التقريرات حتى ان بسببها تزول عن خاطره تلك الوساوس. ثم ان قوله فان كنت في شك فافعل كذا وكذا قضية شرطية والقضية الشرطية لا اشعار فيها البتة بان الشرط وقع او لم يقع (الرازي مجلد خامس وجه ٢٨ و٢٩)

وتفسيرها في البيضاوي هو فانه محقق عندهم (اي اهل الكتاب) ثابت في كتبهم على نحو ما القينا اليك من القصص والمراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما في الكتب المتقدمة ... او وصف اهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة ما انزل اليه او تهييج الرسول وزيادة تثبيته لا امكان وقوع الشك له (مجلد اول وجه ٥٥٠)

وفي الجلالين فان كنت يا محمد في شك مما انزلنا اليك من القصص فرضاً فاسأل الذين يقرأون التوراة من قبلك فانه ثابت عندهم يخبرونك بصدقه (جزء اول وجه ٢٠٥)

(ملاحظة) يظهر من تفسير العلماء لهذه الآية على الصورة المتقدمة كأنهم شعروا بثقل هذه الآيه على عواتقهم لقيامها اهل الكتاب حكماً لمحمد فحاولوا تأويلها على نوع يبقى فيه شرف نبيهم غير مثلوم على ان صراحة الآية التي

جعلت مجالهم حرجاً للغاية دفعتهم الى كلام لا يجدر بامثالهم كقول بعضهم ان هذا الخطـاب هو في الظـاهر مع النبي والمراد غيره اي للمتوقفين في امره الشاكين به وهو في غاية البعد عن مراد الآية وبعضهم بل هو للنبي كما رأيت فيما تقدم على انهـم كيفما قلبوا المسألة واداروها تتجه كابرة الملاحين (الحك) نحو قطبي سلامة الكتاب وامانة اهله عليه. فاذا على افتراض ان الخطاب في الآية كان للشاكين في نبوة محمد فذلك يرتب على كل مرتاب في امر محمد ان يستفتي من جهته اهل الكتاب وذلك عمـل حسن فهل يستحسنه المسلمون وان كان الخطـاب فيها لمحمد ليس الا وهو الصحيح فهو بيان سني على امانة اهل الكتاب معاصري محمد على كتابهـم لانه اذا كان لازالة الشك من قلب محمد فيما انزل اليه او لدفع تلك الخواطر المشوشة من قلبه امر بسؤال قارئي الكتاب من قبله فذلك برهان ساطع على انهـم اهل الكتاب الحق وانهـم محافظون عليه كما انزل وعلى كفايتهـم لاعطاء الجواب الشافي لمحمد ولجلاء الاوهام بنور كتابهم وذلك لا يدع محلاً للقول على سبيل السؤال فان قيل اذا كان مذهبكم ان هذه الكتب قد دخلها التحريف والتغيير فكيف يمكن التعويل عليها ولا محلاً لذلك الجواب البارد الساقط وعجباً للامام كيف هكذا يتلاعب في اقواله تلاعباً لايليق بذي العلم والتعقل. اينسى او يتناسى ما تقدم من الايات البينات وتفاسيرها في هذا الباب المبينة بكل وضوح وجلاء عدم تطرق التحريف الى الكتاب (التوراة والانجيل) وان ما يسمى تحريفاً كنص الآية يحرفون الكلم عن مواضعه ليس هو سوى الكتمان والاخفاء او التأويل الفاسد وليّ اللسان بالالفاظ وتعويجها عن استقامتها. والا يعلم انه لو لم يكن في القرآن شهادة لامانة اهل الكتاب على كتابهم سوى هذه الآية التي نحن بصددها لكفى بها دليلاً لهم على ذلك لانها سد محكم لكل فم يطعن بسلامة الكتاب او بعدم امانة اهله عليه. اما قول بعضهم انه يراد بالذين يقرأون الكتاب من قبلك هم اولئك النفر الذي اسلم من اليهود فهو لقول ساقط كما بينا في الملاحظة على تأويل الآية السالفة وهو غير مقبول كما قد رأيت عند

المتكلمين واما القول في البيضاوي والجلالين ان محمداً امر بسؤال الذين يقرأون الكتاب من قبله من نحو ما القى اليه من القصص فهو لضعيف لان الآية لا تبين ان المراد بذلك هو القصص التاريخية على نحو قصص التوراة وتفسير الامام الرازي يستبان منه غير ذلك لانه يقال فيه ان السؤال هو لازالة الخواطر المشوشة من قلب محمد وهو اكثر موافقة للآية. وبعد اذا كان محمد امر بسؤال اهل الكتاب للاستفادة منهم عن حقيقة ما انزل اليه فيلزم ان اتباعه يجرون على هذا المجرى للتحقيق والاستشهاد لما في الكتب المتقدمة واذا وجب ذلك يكون الكتاب المقدس هو الحكم في العقائد والمذاهب وللفصل بين الحق والبطل فاين قول القائلين بتحريف الكتاب ايجهلون انه لو كان اهل الكتاب غير امناء على كتاب الله لكان القول (واسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك) عبثاً لا محل له اذ يكون محمد امر بسؤال اناس غير امناء لعبوا بكتاب الله وكيف ينتظر من مثل هؤلاء ان يخلصوا الجواب لمحمد لكن الآية تعلن امانة المسئولين وبراءة ساحتهم من تحريف او تغيير كلمة او حرف في كتابه تعالى

تذييل

اذ قد اتضح من الآيات المتقدمة في هذا الباب مع تفسيرها من اشهر العلماء الراسخين سلامة كتاب الله التوراة والانجيل من التحريف نقول ان المسلم القائل بتحريفه قد نافى نص القرآن الصريح وانكر بذلك صحة ما اعتقد انزاله من الله لان ليس الطعن في سلامة الكتاب الا طعن في شهادة القرآن له وهل من اتى بذلك يجوز ان يحسب مسلماً فليس من شأن المسلم الطعن على سلامة الكتاب انما ذلك شأن من القى القرآن ظهرياً وانخرط في سلك اعداء الوحي فعلى اهل الكتاب قراعه ثم بحسام الحجة والبرهان

وبعد اترضى يامسلم حينئذٍ لنفسك ان تحترم آيات القرآن دون تدبرها وان تتلوها بالخشية ولا تأخذ بها فان قلت بل اتدبرها وآخذ بها يقيناً وعملاً

قلت اذاً لزمك لا محالة اعتبار التوراة والانجيل الحاليين كتاب الله الحق الذين لم يشبهما شائب التحريف ولم يمسهما تغيير وتبديل حسب مفاد الآيات القرآنية المتقدمة وعليه ما اجدرك باتخاذ الكتاب ودراسته بالوقار اناء الليل واطراف النهار لاستقصاء مبانيه واستجلاء معانيه الكتاب الذي منه اخذ القرآن تلك القصص والاعلام وهل يفوت ذهنك ان شهادة القرآن لسلامة الكتاب ليست الا ضرباً من الارشاد اليه وتشويقاً للوقوف عليه وان تلك القصص في القرآن اكبر داع للوقوف على الكتاب التي اخذت منه كما اذا شوهد بعض الحجارة الكريمة بيد امرء ما وعلم انها من معدن كذا يكون ذلك داعياً لقصد ذلك المعدن لمعرفة ما فيه من نوع تلك الجواهر الثمينة والا يعد من الحماقة والبلادة الاغضاء عن ذلك. وعليه فلا حاجة للمسيحي ان يجهد نفسه مع المسلم ببيان عدم تحريف الكتاب والبينة على ذلك جلية في قرآنه لان من كان الشهود عليه من اهله وخلانه لا حاجة الى تقديم شهود عليه من الخارج وكفى بالقرآن دليلاً لاهله على سلامة الكتاب وان اهله كانوا في زمان محمد كما هم اليوم امناء على كتابه تعالى يبذلون من دونه المهج متفقين عليه مختلفين فيما سواه

الباب الخامس

في الآيات الدالة على ان النبوة والكتاب خاصان ببني اسرائيل

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ «البقرة آية ٤٨»

(التفسير) ملخصه انه تعالى يذكرهم بسالف نعمته عليهم تحذيراً من ترك اتباع محمد كأنه يقول ان لم تطيعوني لاجل سوالف نعمتي عليكم فاطيعوني للخوف من عقابي في المستقبل . أما قوله واني فضلتكم على العالمين ففيه سؤال وهو انه يلزم ان يكونوا افضل من محمد عليه السلام وذلك باطل بالاتفاق

والجواب عنه من وجوه (الوجه الاول) قال قوم العالم عبارة عن الجمع الكثير من الناس كقوله رأيت عالماً من الناس والمراد منه الكثير لا الكل وهذا ضعيف لان لفظ العالم مشتق من العلم وهو الدليل فكل ما كان دليلاً على الله تعالى عالماً فكان من العالم وهذا تحقيق قول المتكلمين العالم كل موجود سوى الله وعلى هذا لا يمكن تخصيص العالم ببعض المحدثات (الوجه الثاني) المراد فضلتكم على عالمي زمانكم وذلك لان الشخص الذي سيوجد بعد ذلك وهو الآن ليس بموجود لم يكن ذلك الشخص من جملة العالمين حال عدمه لان شرط العالم ان يكون موجوداً والشيء حال عدمه لا يكون من العالمين وعليه فلا يلزم من كون بني اسرائيل أفضل من العالمين في ذلك الوقت كونهم افضل من محمد صلى الله عليه وسلم (الوجه الثالث) ان قوله واني فضلتكم على العالمين عام في العالمين لكنه مطلق في الفضل والمطلق يكفي في صدقه صورة واحدة فالآية تدل على ان بني اسرائيل فضلوا على العالمين في أمر ما وهذا لا يقتضي أن يكونوا أفضل من كل العالمين في كل الامور بل لعلهم وان كانوا أفضل من غيرهم في أمر واحد فغيرهم يكون افضل منهم فيما عدا ذلك الامر وفي ذلك مباحث مستطيلة نذكر منها ما نخص بحثين (الاول) قال ابن زيد أراد به المؤمنين منهم لان عصاتهم مسخوا قردة وخنازير على ما قال تعالى وجعل منهم القردة والخنازير وقال لعن الذين كفروا من بني اسرائيل (الثاني) قوله تعالى واني فضلتكم على العالمين يدل على انه رعاية الاصلح لا تجب على الله تعالى لا في الدنيا ولا في الدين . فان قيل لِمَ خصهم بالنعم العظيمة في الدنيا فهذا يناسب ان يخصهم بالنعم العظيمة في الآخرة كما قيل اتمام المعروف خير من ابتدائه فلم أردف ذلك بالتخويف الشديد في قوله « واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل و لاهم ينصرون » والجواب لان المعصية مع عظم النعمة تكون اقبح والحش فلهذا حذرهم منها (الرازي مجلد اول وجه ٥٠٠و٥٠١)

وتفسيرها في الجلالين اذ كروا نعمتي بالشكر عليها بطاعتي وأني فضلتكم أي آباءكم على العالمين عالمي زمانهم (جزء اول وجه ٩)

(ملاحظة) لا بأس من القول بان الله فضل بني اسرائيل على عالمي زمانهم غير ان النتيجة المستخرجة من هذه المقدمة وهي وعليه لايلزم من كون بني اسرائيل افضل من العالمين في ذلك الوقت افضل من محمد لا تفي بالغرض من وجهين (الاول) تفضيل بني اسرائيل على بني اسماعيل معاصريهم واذا كان الله خص بني اسماعيل بسيد الانبياء وحبيبه الخاص الذي ما خلقت السماء والارض الا لاجله كما يزعمون فبالضرورة تكون ذرية اسماعيل افضل من ذرية اسرائيل (يعقوب) وعليه كيف فضل تعالى بني اسرائيل على بني اسماعيل وان قيل انما ذلك كان لانه لم يكن قد خرج بعد نبي من ذرية اسماعيل نقول ان الاقتصار على اعتبار الحال انما هو شأن الانسان لا شأن العليم الحكيم الذي قد استوى عنده الحال والاستقبال فاذا كان بقصده تعالى اقامة نبي من ذرية اسماعيل في مستقبل الايام اعظم وافضل كل انبياء اسرائيل فلا مشاحة انه يكون قد فضلهم على بني اسرائيل واذ ذلك فكيف يقول انه فضل بني اسرائيل على العالمين المندرج فيهم بني اسماعيل (الثاني) زعموا ان محمداً اول خلق الله اي انه كان نوراً ينقلب متسلسلاً من اصلاب الطاهرين الى ارحام الطاهرات من آدم حتى ابيه عبد الله حتى امه آمنة فعليه قد كان محمد موجوداً روحياً في ايام اسرائيل وذريته واذا كان الله فضل بني اسرائيل على بني اسماعيل عالمي زمانهم يلزم من ذلك انه تعالى فضلهم على محمد الذي كان وقتئذ في الاصلاب والارحام ولا مناص من ذلك

- وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا «سورة الانعام آية ٨٥»

(التفسير) ملخصه ووهبنا له اسحق لصلبه ويعقوب من بعده من اسحق فان قالوا لِمَ لم يذكر اسماعيل عليه السلام مع اسحق بل اخر ذكره عنه بدرجات قلنا لان المقصود بالذكر ههنا انبياء بني اسرائيل وهم باسرهم اولاد

اسحق ويعقوب واما اسماعيل فانه ما خرج من صلبه احد الانبياء الا محمد (صلى الله عليه وسلم) ولا يجوز ذكر محمد عليه السلام في هذا المقام لانه تعالى امر محمد (صلى الله عليه وسلم) ان يحتج على العرب في نفي الشرك بالله بان ابرهيم لما ترك الشرك واصر على التوحيد رزقه الله النعم العظيمة في الدين والدنيا ومن النعم العظيمة في الدنيا ان اتاه الله اولاداً كانوا انبياء وملوكاً فاذا كان المحتج بهذه الحجة هو محمد عليه الصلاة والسلام امتنع ان يذكر نفسه في هذا المعرض فلهذا السبب لم يذكر اسماعيل مع اسحق (الرازي مجلد ٤ وجه ١٢١ و١٢٢)

(ملاحظة) انك ترى الامام باعتبار هذه المسئلة الخطيرة كرجل ضمن دائرة بناء عال لا منفذ لها يدور ملتمساً مخرجاً ولا يجد فيأخذ يقفز هنا وهناك محاولاً عبثاً الصعود الى اعالي الجدران فيعود منهوكاً من الاعياء بلا جدوى فانظر ان جوابه على سؤال السائل الذي هو لِمَ لم يذكر اسماعيل مع اسحق بل اخر ذكره عنه بدرجات ليس تخلصاً بل تملصاً عدمه خير منه لانه يعود على المتكلم بما لا يرضيه وذلك من وجهين كما سترى (الاول) ان السائل لم يقل لِمَ لم يذكر محمد مع موسى بل اسماعيل مع اسحق فاي محل اذاً للجواب «ولا يجوز ذكر محمد في هذا المقام» ومن اين عرف حضرته ان المقصود من ذكر اسحق ويعقوب كهبة الله لابرهيم هو ذكر انبياء بني اسرائيل وما دليل ذلك . وعلى فرض صحة مقاله هذا ان ذكرهما مقصود به ذكر الانبياء الذين سيأتون من نسلهما فذلك يوجب ذكر اسماعيل معهما كون ذكره بحسب مبدا الامام ذكر النبي الذي سيكون منه (الثاني) اذا كان المقصود من ذكر اسحق ويعقوب معاً ذكر الانبياء الذين سيكونون من ذريتهما ينتج من ذلك ان عدم ذكر اسماعيل معهما ان لا نبي من ذريته فتأمل . واما القول بامتناع محمد من ذكر نفسه لسبب كذا فهو لقول ساقط لانه لا يفهم من ذكر اسماعيل مع اسحق ذكر محمد فكأن الجهل والحسرة قادا القائلين الى اختلاق هذا السبب العديم الاعتبار

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا «مريم آية ٤٩ و٥٠»

(التفسير) ملخصه ان ابراهيم لما اعتزل عشيرته واعتزل دينهم وبلدهم وسار الى حيث دعاه الله عوضه أولاد أنبياء . وجعله تعالى ابراهيم وولده وحفيده انبياءً من أعظم النعم في الدنيا والآخرة ثم بين تعالى انه مع ذلك وهب لهم من رحمته أي وهب لهم مع النبوة ما وهب ويدخل فيه المال مع الجاه والاتباع والنسل الطاهر والذرية الطيبة ثم قال وجعلنا لهم لسان صدق علياً ولسان الصدق الثناء الحسن وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يعطى باليد وهو العطية واستجاب الله دعوته في قوله واجعل لي لسان صدق في الاخرين فصيره قدوة حتى ادعاه أهل الاديان كلهم (الرازي مجلد ٥ وجه ٨٠٩)

وتفسيرها في البيضاوي هو «وهبنا له اسحق ويعقوب» لعل تخصيصهما بالذكر لانهما شجرتا الانبياء او لانه أراد ان يذكر اسمعيل بفضله على الانفراد وكلا جعلنا نبياً وكلا منهما أو منهم (بيضاوي مجلد ثاني وجه ٣٩)

وتفسيرها في الجلالين هو بان ذهب (ابراهيم) الى الارض المقدسة وهبنا له ابنين يأنس بهما وكلا منهما جعلنا نبياً ووهبنا لهم اي للثلاثة من رحمتنا المال والولد وجعلنا لهم لسان صدق علياً رفيعاً وهو الثناء الحسن في جميع أهل الاديان (جزء ثاني وجه ١٧)

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ «سورة العنكبوت آية ٢٧»

(التفسير) ملخصه ان ابراهيم لما أتى ببيان التوحيد دفع عنه شر قومه الكفار واثابه في الدنيا بالبنين والذرية والجاه والمال ثم قال وانه في الآخرة لمن الصالحين بين تعالى ثواب ابراهيم العاجل والآجل فقال «ووهبنا له اسحق ويعقوب» الخ ثم قال وفي الآية مسئلتان (احداهما) ان اسمعيل كان من أولاده الصالحين فلم لم يذكر فيقال هو مذكورٌ في قوله وجعلنا في ذريته النبوة ولكن لم يصرح باسمه لانه كان غرضه تبيين فضله عليه بهيئة الاولاد و لاحفاد فذكر من الاولاد واحداً وهو الاكبر ومن الاحفاد واحداً وهو الاظهر (الثانية) ان الله تعالى جعل في ذريته النبوة اجابة لدعائه والوالد يستحب منه ان يسوي بين ولديه فكيف صارت النبوة في أولاد اسحق أكثر من النبوة في أولاد اسمعيل فنقول. الله قسم الزمان من وقت ابراهيم الى القيامة قسمين والناس جمعين فالقسم الاول من الزمان بعث الله فيه انبياء فيهم فضائل جمة وجاؤا تترى واحداً بعد واحد ومجتمعين في عصر واحد كلهم من ورثة اسحق عليهم السلام ثم في القسم الثاني من الزمان اخرج من ذرية ولده الآخر وهو اسمعيل واحداً جمع فيه ما كان فيهم وأرسله الى الخلق كافة وهو محمد صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم النبيين وقد دام الخلق على دين اولاد اسحق اكثر من أربعة آلاف سنة فلا يبعد ان يبقى الخلق على دين ذرية اسمعيل مثل ذلك المقدار رازي مجلد ٦ وجه ٦٦٢و٦٦٣و٦٦٤)

وتفسيرها في البيضاوي «ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب» يعقوب نافلة حين آيس من الولادة من عجوز عاقر ولذلك لم يذكر اسمعيل «النبوة» فكثر منهم الانبياء «والكتاب» يريد به الجنس ليتناول الكتب الاربعة (مجلد ثاني وجه ٢٣٢)

(ملاحظة) لا يخفى على القارئ العزيز ان الامام بتفسيره هذه الآية قد خالف قوله بعض المخالفة في تفسيره الآية على وجه ٨٠ لانه في تفسير تلك زعم ان سبب عدم ذكر اسمعيل مع اسحق هو لان المقصود بذكر اسحق ويعقوب فيها ذكر الانبياء ذريتهما الى آخر الكلام . وفي تفسير هذه يقول عن اسمعيل

نه مذكور في قوله «وجعلنا في ذريته النبوة ولكن لم يصرح باسمه» الى آخر القول فنقول كان الاجدر بالامام ان يقول هذا القول من الاول حتى لا يقع في ورطة التناقض الذي لم يجده نفعاً من وجهين (الاول) لانه لو كان الامر كما ذكر لوجب ذكر اسمه مع ذكر اسم اخيه وابن أخيه حال كونه ابن ابراهيم البكر وهو الاكبر لا اسحق كما يتوهم الامام وما اسقم السبب الذي يذكره لعدم التصريح باسم اسمعيل مع اسحق لانه ان كان غرض الله تبيين فضله على ابراهيم بهيئة الاولاد والاحفاد واسمعيل ولد ابراهيم البكر الذي منه سيكون سيد الانبياء والمرسلين كما يزعمون لكان هو أحرى بالذكر اولاً ولكن فات حضرته ان السبب غير ما ذكر وهو حقاً سبب موجب لعدم ذكر اسمعيل مع اسحق ويعقوب وما أدراك ما هو؟ هو لانهما شجرتا الانبياء حسبما يذكر البيضاوي ومن ذريتهما سيكون النسل المبارك الذي فيه تتبارك جميع قبائل الارض (انظر تك ٢٢:١٨و٢٦:٤و٢٨:١٤) وعليه فان اسحق وهب لابراهيم بوعد كما هو مقرر في التوراة والقرآن حيث بشر به الملائكة ابراهيم وسارة بخلاف اسمعيل الذي ولِدَ له من سريته هاجر بدون وعد ولا تبشير (الثاني) لان القول «وجعلنا في ذريته النبوة قرينة للقول» ووهبنا له اسحق ويعقوب ولما كانت هذه النعمة مقرونة بتلك الهبة دل ذلك على جعلها في ذرية الموهوبين لابراهيم وما يزيد هذه الحقيقة جلاءً انه عند ذكر اسم اسمعيل لا يقرنه بشيء من وعد النبوة كما في ذكر اسحق ويعقوب (انظر سورة الانبياء آية ٨٢ وسورة ص آية ٤٦)

ثم من اين عرف حضرة الامام ان الله سبحانه قسم الزمان الى قسمين نبويين الواحد زمان انبياء بني اسرائيل والثاني زمان نبوة محمد وان الله جمع في محمد ما كان في أولئك الانبياء من الفضائل وان دين أولاد اسحق دام اكثر من اربعة آلاف سنة الى آخر القول (راجع وجه ٨٢) فاقول ان هذا الزعم فاسد ووجه فساده هو (اولاً) لا يخفى على القارئ النبيه ان عيسى المسيح هو من بني اسرائيل ذرية اسحق ويعقوب ودينه منتشر في كل الاقطار وعدد

المتدينين به نحو ثلاثة أضعاف المتدينين بدين محمد وهو باقٍ نامٍ زاه اكثر من كل دين على وجه الارض هذا عدا عن بقية أمة اليهود المتمسكة بمجرد شريعة موسى فاين تقسيمه اذاً (ثانياً) انه لم تجمع في محمد فضائل انبياء اسرائيل حتى ولا فضائل واحد من مشاهيرهم ولايضاح ذلك نأتي بذكر فضائل اثنين منهم وهما موسى وعيسى فموسى كلمه الله وجهاً لوجه واعطاه الوحي الشريعة على جبل حوريب مع علامات حضور الله عز وجل امام اعين شعب اسرائيل وعجائبه ومعجزاته معلومة ومحمد حسب زعمهم لم يكلمه الله بل كان جبريل يأتيه بالآيات من عند الله وهو لم يصنع معجزة ما وكان العرب عبثاً من سؤاله آية كما قد رأيت في الباب الاول من هذا الكتاب فاين هو اذاً من فضائل موسى أما المسيح يسوع فقد زاد كثيراً في الفضل على موسى من حيث الولادة والنسب والقداسة والعمل . ولد من دون أب بشري ودعي في القرآن من روح الله وكلمته ولم يذكر له عيباً ولا له في القرآن استغفار او توبة واياته ومعجزاته تفوق آيات موسى اذ أحيي الميت وابرأ الاكمه والابرص وخلق من طين حيا ومحمد ليس له مثل هذا النسب العجيب والصفة والمقدرة فلا هو عمل آية واحدة مما عمل المسيح وكان دأبه استغفار ربه عن ذنوبه حتى كان الجواب حسب القرآن قد غفرنا لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فضلاً عن ان عيسى كان رجلاً زاهداً لم يعرف امرأة ورجل حب وسلام ودعة وسكينة حيثما توجه كان ينثر البركات والخيرات على أولي الفاقة والبؤس فاين هو اذاً من فضائل المسيح . انه سهل على المرء ان يدعي كما يشاء ولكن الصعوبة في اثبات الدعاوي فالقائد الحكيم يعدل قوته قبل الحرب ويقدر العواقب قبل خوض المعامع وبيان ان الامام لم يعدل متانة أقواله هذه فيعرف منزلتها من القوة والضعف ولم يحسب ان أهل الكتاب قادرون على دحضها بأوفر سهولة فاقتحم المسألة عن غير انتباه وترو واني لا اقدر أصدق ان مثل هذه التفاصيل الواهنة السخيفة تحوز القبول عند ذوي الاطلاع النبهاء من مسلمي هذا العصر الذين لاتنفق في سوقهم دعاوٍ لا اساس لها يعتمد عليه ولا برهان تقوم به.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ «سورة الانبياء اية ٧٢ و٧٣»

(التفسير) خلاصته وهو قول ابن كعب وابن سعد وعباس وقتادة والفراء والزجاج ان ابراهيم عليه السلام لما سأل الله ولداً قال رب هب لي من الصالحين فاجاب الله دعاه ووهب له اسحق اجابة لدعائه واعطاه يعقوب من غير دعائه فكان ذلك نافلة على ما سأل كالصلاة النافلة زيادة على الفرض وعلى هذا النافلة يعقوب خاصة وكلاً جعلنا صالحين اي وكلاً من ابراهيم واسحق ويعقوب انبياء ومرسلين عاملين بطاعة عز وجل مجتنبين محارمه واوحينا اليهم فعل الخيرات وهذا يدل على انه سبحانه خصهم بالنبوة وكانوا لنا عابدين كأنه سبحانه وتعالى لما وفى بعهد الربوبية في الاحسان والانعام فهم ايضاً وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة (رازي مجلد ٦ وجه ١٦٧ و١٦٨ و١٦٩)

وتفسيرها في البيضاوي وهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين «نافلة» عطية فهي حال منهما او ولد ولد او زيادة على ما سأل وهو اسحق فتختص بيعقوب ولا بأس للقرينة وكلاً يعني الثلاثة «جعلنا صالحين» بان وفقناهم للصلاح او حملناهم عليه فصاروا كاملين (مجلد ثاني وجه ٨٧)

(ملاحظة) ها لقد تقرر القول اربع مرار في اربع سور «ووهبنا» ابراهيم واسحق ويعقوب وقد تذيل كل من هذه الاقوال بذيل يتنوع عن سالفه ويزيده رونقاً وعظمة فذيل الاول كما رأيت وكلاً هدينا (الثاني) وكلاً جعلنا نبياً (الثالث) وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب (الرابع) وكلاً جعلنا صالحين. افلا يدل ذلك دلالة راهنة ان غاية الله الحسنى هي في نسل اسحق ويعقوب دون اسمعيل والا يوافق ذلك كل الموافقة ما ورد في التوراة من

وعده تعالى لكل من ابراهيم واسحق ويعقوب على التوالي ويتبارك في نسلك جميع قبائل الارض (راجع وجه ٨٣) وبعد الا يخطر على بال المسلم النبيه لدى استغراق تأمله في هذة الآيات انه لو كان لاسمعيل عند ربه من الكرامة ما عنده لاسحق او لو كانت الغاية فيهما متساوية لكان ذكره اولى في هذا المقام من ذكر يعقوب حفيد ابراهيم وعوض القول المكرر ووهبنا له اسحق ويعقوب كان القول ووهبنا له اسمعيل واسحق او اسحق واسمعيل فما ياترى علة هذا العدول عما هو طبيعي وعادي في هذه المسألة . وهنا نرجع بالقارئ العزيز الى تفسير الائمة كلمة ووهبنا له اسحق ويعقوب وننظر في مفاد ذلك فعلى القول في الاولى يقول الامام فخر الرازي «ووهبنا له اسحق لصلبه ويعقوب بعده من اسحق» فارجوك الوقوف هنيهة لتدبر هذه الكلمة. انظر الا تفيد كأن ابراهيم لم ينعم عليه من الله بولد من صلبه سوى اسحق مع ان اسمعيل ولده من صلبه فلم ياترى لم يذكر لامقدماً ولا مؤخراً مع اسحق بل حسب الحفيد هبة الله لابراهيم دونه كانه ليس بولده الا ان ذلك دليل على ان غاية الله الصالحة هي في نسل اسحق ويعقوب دون نسل اسمعيل وفقاً لقوله تعالى في التوراة حين طردت سارة هاجر واسمعيل ولدها « في كل ما تقول سارة اسمع لقولها لانه باسحق يدعى لك نسل» تك ٢١:١٢

وعلى القول في الآية الثانية وجه٨١ يقول ان ابراهيم لما اعتزل عشيرته ... وسار الى حيث دعاه الله عوضه اولاد انبياء . وجعله تعالى ابراهيم وولده وحفيده انبياء من اعظم النعم في الدنيا والآخرة فنثني على امانة الامام بتفسير الآية هكذا على ان ليس في وسعه ان يتجاوز صراحتها فتأمل ان اسمعيل كما انه لا حظّ له في الحسبان مع اخيه وابن اخيه كهبة الله لابراهيم لا حظّ له ان يحسب معهم نبياً واذا كان كما يزعمون هو ابو سيد الانبياء حبيب الله لماذا لم يشرف بشيء من ذلك بل اغضي عنه كأنه ليس بموجود وليس هو ابن ابراهيم. لِمَ ياترى.وفي الجلالين ووهبنا له ابنين يأنس بهما وكلاً منهما جعلنا نبياً فيا جلال الدين الم يكن لابراهيم ولد من صلبه غير اسحق فلمَ قلتَ يأنس بهما

تعني ابنه اسحق وحفيده يعقوب ولم تقل يأنس بهما مع اسمعيل ولده ألم يكن اسمعيل حياً حتى لم تشمله بذكر الانس لابيه مع اخيه أأهملته وفقاً للآية التي لا تكترث به. حسناً عملت. اما البيضاوي فيقول. لعل تخصيصهما بالذكر لانهما شجرتا الانبياء لقد احسن الامام ايضاً بهذا التأويل وان يكن تحت لفظة لعل كانه بعد البحث لم يجد سبباً لتخصيصهما بالذكر الا هذا فعليه يقال لعل عدم شمل اسمعيل معهما بالذكر هو لانه ليس شجرة انبياء ولا هو اصل نبي عظيم لانه اذا كان شجرة او اصل نبي اعظم كل الانبياء فيه جمع الله كل فضائلهم حسب تأويل الرازي (انظر وجه ٨٣) فهو مستحق ان يشتمل بالذكر مع اسحق ويعقوب وجدير بان يحسب في عداد هبات الله لابراهيم ولكن لكدر وغم حزبه لم يشرف بشيء من ذلك

وعلى القول في الآية الثانية وجه ٨١ يقول الرازي ان ابراهيم لما اتى ببيان التوحيد دفع عنه شر قومه الكفار واثابه في الدنيا بالبنين والذرية والجاه والمال فيريد بالبنين هنا حسب الآية اسحق ويعقوب كأن ابراهيم لم يرزق من الله بنين سواهما فتأمل. وعلى القول في الآية الرابعة وجه ٨٥ ان ابراهيم لما سأل الله ولداً قال رب هب لي من الصالحين فاجاب الله دعاءه ووهب له اسحق اجابة لدعائه واعطاه يعقوب من غير دعائه فكان ذلك نافلة

وفي البيضاوي يعقوب نافلة عطية او زيادة على ما سأل. وهنا ملاحظة ان كان ابراهيم حين سأل الله ولداً صالحاً «رب هب لي من الصالحين» كان له اسمعيل يتضح ان ابراهيم ما كان معتبراً اسمعيل كولد له صالح ولذلك لم يحص في عداد الموهوبين له من الله وان كان لم يكن له حينئذٍ اسمعيل وان اسمعيل ولد لابراهيم بعد اسحق كما اشار الرازي (وجه ٨٠) ولم يذكر بين اسحق ويعقوب كهبة الله لابراهيم بل استثنى من ذلك كأنه لم يكن ولداً لابراهيم يستدل من ذلك كأن لا خير فيه او ليس فيه ولا في نسله بركة للعالم بل ذلك خاص بنسل اسحق ويعقوب الانبياء الصالحين وشجرتي الانبياء المباركين واني لاعجب من القول عن يعقوب انه نافلة لابراهيم كصلاة النافلة

زيادة على الفرض وهو حفيد ابراهيم لا ولده من صلبه وحسب المبدأ الطبيعي يقال هو هبة الله لاسحق لا لابراهيم على انه لو كان يعقوب اخو اسحق من ابراهيم ولد له بعد اسحق بدون طلب ابراهيم لصح القول واعطاه الله يعقوب زيادة على ما طلب اذ هو اي ابراهيم طلب ولداً فزاده الله آخر من صلبه. ولما لم يكن كذلك فلا يصح ان يقال عن يعقوب انه نافلة لابراهيم

ثم انه يوجد اختلاف بين الامامين الرازي والبيضاوي في تفسير الآية السابعة والعشرين في سورة العنكبوت . وهي «ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب الخ». فان الرازي يقول في معرض الجواب عن مسئلة ان اسمعيل كان من اولاد ابراهيم الصالحين فلمَ لم يذكر (يعني في الآية) مع اسحق ويعقوب فيقال هو مذكور في قوله وجعلنا في ذريته النبوة ولكن لم يصرح باسمه والبيضاوي يقول في تفسيرها يعقوب نافلة حين آيس من الولادة من عجوز عاقر ولذلك لم يذكر اسمعيل «النبوة» فكثر منهم الانبياء والكتاب يريد به الجنس يتناول الكتب الاربعة (يعني التوراة والزبور والانجيل والقرآن) اما فقوله كثر منهم بصيغة الجمع يريد به الثلاثة ابراهيم واسحق ويعقوب وهو يوافق تفسير الرازي آية ٧٢ و٧٣ من سورة الانبياء «وكلاً جعلنا صالحين اي وكلاً من ابراهيم واسحق ويعقوب انبياء مرسلين...» واوحينا اليهم فعل الخيرات وهذا يدل على انه سبحانه خصهم بشرف النبوة فيتضح مما تقدم من قول البيضاوي في سورة العنكبوت والرازي في تفسيره الآية في سورة الانبياء ان القول «وجعلنا في ذريته النبوة» انه يعني بذريته اسحق ويعقوب ونسلهما لا غير وهنا نسأل الامام الرازي اذا كان الله سبحانه خص ابراهيم وولده اسحق وحفيده يعقوب بشرف النبوة الا ذلك يكون بياناً على ان اسمعيل لم ينعم عليه بهذا الشرف . بلى . وعليه فكيف عنّ لك ان تقول ان اسمعيل مذكور في قوله وجعلنا في ذريته النبوة حال كون غاية الآية هي اسحق ويعقوب. الا ترى ان ذلك من قبيل الخلط الذي لم يكن جديراً بمثلك. اما تأويل الامام البيضاوي لقول الآية «والكتاب» انه يريد به

الجنس ليتناول الكتب الاربعة التي منها القرآن فهو فاسد من وجهين (الاول) اذا كانت الذرية المجعول فيها النبوة هي اسحق ويعقوب ونسلهما حسبما تبين فيما تقدم يكون لا مراء المراد بالكتاب هو كتاب تلك الذرية لان الكتاب معطوف على النبوة فلا يصح تخصيص النبوة بذرية ابراهيم المشار اليها دون الكتاب المعطوف عليها. اذاً خص بنو اسرائيل من الله بالكتاب كما بالنبوة (الثاني) ان الكتاب المعرف بأل هو الكتاب المشهور وهو التوراة والانجيل حتى دعي في القرآن اليهود والنصارى اهل الكتاب وهو ارث لبني اسرائيل اورثهم الله اياه دون غيرهم اي هو سبحانه جعل الانبياء الذين اوحي اليهم كلام الله وكتبوه وجمعوه الى كتاب من بني اسرائيل دون غيرهم ويؤيد ذلك قول القرآن ولقد اتينا موسى الهدى واورثنا بني اسرائيل الكتاب هدىً وذكرى لاولي الالباب (سورة المؤمن آية ٥١) وان قيل ذلك يخرج الانجيل من الكتاب قلنا كلا لان يسوع المسيح وحواريه هم اسرائيليون من نسل اسحق ويعقوب ذرية ابراهيم المباركة. فحاصل ما تقدم (١) ان النبوة والكتاب خاصان ببني اسرائيل (٢) ان اسمعيل بن ابراهيم من الجارية ليس هو هبة الله لابراهيم كأخيه وابن اخيه وليس هو نبياً ولا جد نبي طبقاً لما تقدم من قوله تعالى في التوراة ان اسحق يدعى لك نسل وقوله لكلٍ من ابراهيم واسحق ويعقوب وعداً وبنسلك تتبارك جميع قبائل الارض فما احق اذاً القول في القرآن لبني اسرائيل «واني فضلتكم على العالمين»

وَقَالَ (ابراهيم) إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ . رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ

لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَٰهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَاءُ ٱلْمُبِينُ.وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ. وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِنَ ٱلصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَٰقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ «سورة الصفات آية ٩٩ - ١١٣»

(التفسير) خلاصته اني ذاهب الى رب اي مهاجر الى ارض الشام مواضع دين ربي «هب لي من الصالحين» يعني بعض الصالحين يريد الولد فوهب له اسحق كما قال تعالى «ووهبنا له اسحق ويعقوب» وقيل ان هذا اشتمل على ثلاثة اشياء على ان الولد غلام ذكر وانه يبلغ الحلم وانه يكون حليماً واي حلم يكون اعظم من ولد حين عرض عليه ابوه الذبح قال ستجدني ان شاء الله من الصابرين (الى ان يقول) وفي تفسير آيات الذبيح مسائل عديدة ونحن نكتفي بذكر اثنتين هما اشهرها (المسألة الاولى) في تفسير لفظة اني ارى في المنام اني اذبحك وجهان (الاول) قال السدي كان ابراهيم حين بشر باسحق قبل ان يولد له قال هو اذاً لله فقيل لابراهيم قد نذرت نذراً ففِ بنذرك فلما اصبح قال يا بني ارى في المنام اني اذبحك وروي عن طريق آخر انه رأى ليلة التروية في منامه كأن قائلاً يقول له ان الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما اصبح تروى في ذلك الصباح الى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان فمن ثم سمي يوم التروية فلما امسى رأى مثل ذلك فعرف انه من الله فسمي يوم عرفة ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره فسمي يوم النحر فهذا هو قول اهل التفسير وهذا يدل على انه رأى في المنام ما يوجب ان يذبح ابنه في اليقظة (الثاني) انه رأى في المنام انه يذبحه ورؤيا الانبياء عليهم السلام من باب الوحي

وعلى هذا القول فالمرئي في المنام ليس الا انه يذبح (المسألة الثانية) اختلفوا في ان هذا الذبيح من هو فقيل انه اسحق وهذا هو قول عمر وعلي والعباس بن عبد المطلب وابن مسعود وكعب الاحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهري والسدي ومقاتل رضي الله عنهم. وقيل انه اسمعيل وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبي ومجاهد والكلبي واحتج القائلون انه اسمعيل بحجج (منها) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انا ابن الذبيحين وقال له عرابي يا ابن الذبيحين (اي اسمعيل وعبد الله ابو محمد) فتبسم فسئل عن ذلك فقال ان عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهل له امرها ليذبحن احد ولده فخرج السهم على عبد الله فمنعه اخواله وقالوا له فدِ ابنك بمئة من الابل ففداه بمئة من الابل والذبيح الثاني اسمعيل (ومنها) نقل عن الاصمعي انه قال سألت ابا عمرو بن العلا عن الذبيح فقال يا اصمعي اين عقلك ومتى كان اسحق بمكة وانما كان اسمعيل بمكة والذي بنى البيت مع ابيه المنحر بمكة (ومنها) الاخبار الكثيرة في تعليق قرن الكبش بالكعبة فكان الذبيح بمكة ولو كان الذبيح اسحق لكان الذبيح بالشام

واحتج من قال ان ذلك الذبيح هو اسحق بوجهين (الاول) ان اول الآية واخرها يدل على ذلك اما اولها فانه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام قبل هذه الآية انه قال «اني ذاهب الى ربي سيهدين» واجمعوا على ان المراد منه مهاجرته الى الشام

ثم قال فبشرناه بغلام حليم فوجب ان يكون هذا الغلام ليس الا اسحق ثم قال بعده فلما بلغ معه السعي وذلك يقتضي ان يكون المراد من هذا الغلام الذي بلغ معه السعي هو ذلك الغلام الذي حصل في الشام فثبت ان مقدمة هذه الآية تدل على ان الذبيح هو اسحق واما آخر الآية فهو ايضاً يدل على ذلك انه تعالى لما اتم قصة الذبيح قال بعده «وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين» ومعناه انه بشره بكونه نبياً من الصالحين وذكر هذه البشارة عقيب حكاية تلك القصة يدل على انه تعالى انما بشره بهذه النبوة لاجل انه تحمل هذه

الشدائد في قصة الذبيح فثبت بما ذكرنا ان اول الآية وآخرها يدل على ان الذبيح هو اسحق عليه السلام (والثاني) والحجة الثانية على صحة ذلك ما اشتهر في كتاب يعقوب الى يوسف عليه السلام من يعقوب اسرائيل الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابرهيم خليل الله فهذا جملة الكلام في هذا الباب وكان الزجاج يقول الله اعلم ايهما الذبيح والله اعلم. واعلم انه يتفرع على ما ذكرنا اختلافهم في موضع الذبح فالذين قالوا الذبيح هو اسمعيل قالوا كان الذبح بمنى والذين قالوا انه اسحق قالوا هو بالشام وقيل ببيت المقدس والله اعلم (الرازي وجه ١٥٤ و١٥٥و١٥٦)

(ملاحظة) انه لامر يدعو الى العجب العجاب كيف ان مسلمي ايامنا بعد كل هذا البيان يعتقدون ان الذبيح هو اسمعيل فاي ذي ادراك ونصفة لا يرى مما تقدم ان الذبيح هو اسحق وذلك من ثلاثة وجوه (الاول) ان هبة البنين لابراهيم اجابة لدعائه «رب هب لي من الصالحين» حسب تفسير آية ٦٩ و٧٠ من سورة الانبياء (انظر وجه ٨٥) انما كانت اسحق وبعده يعقوب وهو وفق الآية الاولى من الآيات التي اوردناها من صورة الصافات (انظر وجه ٨٩) التي ذكر دعاء ابراهيم «رب هب لي من الصالحين» واجابة الله لدعائه «فبشرناه بغلام حليم» ثم تبين الآيات التالية لها ان هذا الغلام هو الذبيح ومن المعلوم انه لا يذكر في القرآن ان ابرهيم بشر بغلام سوى اسحق فعليه لا محل للريب بكون الذبيح هو اسحق كما علم ذلك عظماء الصحابة وجاهروا به . (الثاني) لان الذاهبين بان الذبيح هو اسحق هم اولى كثيراً بالتصديق من الذاهبين انه اسمعيل. وذلك من ثلاثة وجوه (الاول) لان عدداً منهم كعمر والعباس وعلي وكعب الاحبار هم ركن الاسلام وعمدته اذ هم اكابر الصحابة المقربين الى محمد. فهم لا جرم ادرى بمعاني القرآن من خلفائهم ولا سيما الامام عمر المشهور بحسن الرأي واصابته الذي اجمع الصحابة على علو منزلته عند الله بعد محمد لما انه قد نزلت عدة آيات تبعاً لرأيه كآية منع محمد من الصلاة على من مات من المنافقين وآية الحجاب للنساء الى غير ذلك حتى قال له محمد يا عمر

لو لم ابعث نبياً لبعثت انت «الثاني» لان عدداً من القائلين ان الذبيح هو اسمعيل هم بنو اولئك العظام ودونهم من كل الوجوه فليس من الاصابة ان يعتمد قولهم دون قول ابائهم واباؤهم هم الاقرب الى محمد ولزمته وعمدته المشهود لهم كما تقدم بالدراية وعلو الفضل (تنبيه) ياوح للقارئ العزيز من رأي هؤلاء المتآخرين كأنهم رأوا اهمية الاعتقاد بكون اسمعيل هو الذبيح ليكون ذلك في الاسلام اساساً للزعم بان المنحر كان في مكة ولانهم قليلون بالنسبة الى عدد القائلين ان الذبيح هو اسحق ودونهم فضلاً وعلماً بالدين راموا تعزيز رأيهم ورجحان كفتهم بما اوردوه من الحديث عن محمد والاعرابي (انظر وجه ٩١) الذي كل عاقل مدرك يرى انه لو كان هذا الحديث قرين الصحة لما خفي على العباس عم محمد وعلى علي ابن عمه وصهره وعلى عمر بن الخطاب عمدته وصاحب سره والشديد الحرص على اقواله ونكته ولما كان لهم مجال للقول بخلافه . ثم وهو بعيد ان محمداً يقول او يدعي خلاف الآيات القرآنية من هذه الحيثية لان المسألة في القرآن خبرية لا شرعية فلا مدخل فيها للنسخ (الثالث) لان الاخذ بقول القائلين ان الذبيح هو اسمعيل هدم للاسلام لان المسلم الذي لا يعتمد رأي كبراء الصحابة كالمشار اليهم في مثل هذه المسألة يهدم اركان الثقة بهم وذلك يؤدي لا محالة الى اعدام اليقين بالقرآن الذي هم كتبته وشهوده والمعوّل عليهم في جمعه ونشره فمن يرى من المسلمين ذلك لنفسه واذا لم يرضوا به وجب عليهم الاجماع بان الذبيح هو اسحق وفقاً لايات القرآن ولمفهوم واقرار اولئك الصحابة المقربين واذا اجمع المسلمون على ان الذبيح هو اسحق وجب اجماعهم على ان المنحر بالشام واذا كان المنحر في الشام في ارض بيت المقدس حيث افتدى الله اسحق بالكبش وجب اذا رأوا النحر سنوياً لله ان يأتوا ذلك في بيت المقدس او على احد جباله لا جبال مكة

(الثالث) ما قيل في تأويل آية ٤٣ من صورة ص وهو «واذكر عبدنا ابرهيم يامحمد» صبر ابراهيم حين ألقي في النار وصبر اسحق للذبح وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره وهو وفق ما قيل انه اشتهر من كتاب يعقوب

الى يوسف ابنه (راجع وجه ٨١) وتأويل الآية اعلاه هو للامام الرازي كما سترى فيما يأتي . فعجباً لهذا الامام المشهور في عصره بالفضل والشرح للقرآن كيف بعد تأويله الآية هكذا يقول بعد ذكره الحزبين وكلاهما في مسئلة ايهما الذبيح من ولدي ابراهيم. والله اعلم. (انظر وجه ٨١) نعم الله عز وجل اعلم كل عليم غير ان هذه الكلمة من عالم امام نظيره بعد البيان كون الذبيح هو اسحق من آيات القرآن واكابر الصحابة ومن تفسيره هو للآية المشار اليها يعد له التواء ومثالا للريب بكل حقيقة .

واما جواب أبي عمرو للاصمعي — يا اصمعي بن عقلك ومتى كان اسحق بمكة وانما كان اسمعيل بمكة والذي بنى البيت مع ابيه والمنحر بمكة فليس هو بجواب ولا حجة بل هو دليل على صغر عقل المجاوب فلا عبرة له عند اولي الدراية والتعقل . وافتكر ان الاصمعي بالنظر الى قوة عقله وحدة ذكائه لم يعر هذا الجواب الفارغ شيئاً من الاعتبار واذا كان سكت فما ذلك منه الا مراعاة للميل العام كدأب كثيرين من الشعراء والادباء الذين يبتغون الخواطر مراعاة للمصلحة . وبعد فانه مشهور ان محل النحر والذبح لله كان بيت المقدس في اورشليم من ايام داود النبي الى ان خربت المدينة والهيكل بايدي الرومانيين بعد المسيح بنحو اربعين سنة في نفس المكان الذي فيه قدم ابراهيم ابنه ليذبحه لله طوعاً لامره تعالى فافتداه الله بكبش كما نرى في التوراة (انظر تك ٢٣:١—١٥) وما يضحك الثكلى اتخاذ قرن كبش معلق في الكعبة دليلا على ان الذبيح كان اسمعيل الذي على زعمهم كان متوطناً مكة فانهم به من دليل كأن لا كبش في الحجاز الا الكبش الذي قدمه ابراهيم بدلا من ابنه ولا قرون الا قرونه . انه لمن المعلوم ان حرم مكة هدم بعد اسمعيل مرة او مرتين ثم بني اوسع واجمل فهل بقي قرن ذلك الكبش معلقاً او بدل بقرن آخر على اني لا اقدر ان اصدق ان المسلمين ذوي التعقل كالامام الرازي وغيره يعيرون مثل هذه الحكاية شيئاً من الاعتبار وما يريك اكثر فاكثر

خرافة الحكاية هو ان ابراهيم امر بتقديم ابنه في قفر خال من الانس لا في مسجد معمور محاطاً بالناس

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ «سورة ص آية ٤٥—٤٨»

(التفسير) ملخصه واذكر عبادنا ابراهيم يا محمد صبر ابراهيم حين ألقي في النار وصبر اسحق للذبح وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره «اولي الايدي والابصار» اي اولي الاعمال والمعارف والادراك «وانا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار» فيها مسائل ووجوه (الاول) المراد من انهم استغرقوا في ذكر الدار الآخرة وبلغوا في هذا الذكر الى حيث نسوا الدنيا (الثاني) المراد حصول الذكر الجليل الرفيع لهم في الدار الآخرة (الثالث) المراد انه تعالى أبقى لهم الذكر الجميل في الدنيا وقبل دعاهم في قوله «واجعل لي لسان صدق في الاخرين ثم» قال «واذكر اسمعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار وهم قوم آخرون من الانبياء تحملوا الشدائد في دين الله» (الرازي مجلد سابع وجه ٢٠٩ و٢١٠)

وتفسيرها من البيضاوي هو اولي القوة في الطاعة والبصيرة في الدين او اولي الاعمال الجليلة والعلوم الشريفة فعبر بالايدي عن الاعمال وبالابصار عن المعارف بيضاوي مجلد ثاني وجه ٢٧٤

(ملاحظة) ان الآية المتقدم ذكرها هي الآية الخامسة التي تخيل للقارئ العزيز كأن اسمعيل ليس من عائلة ابراهيم حال كونه ولده من صلبه اذ لم يحص فيها مع ابراهيم واسحق ويعقوب بالذكر ولا نعت معهم بالفضل وذلك جدير بان يأتي بالمسلم النبيه الى نقطة العجب والحيرة كيف ان الله تعالى

يأمر محمداً بذكر كلٍ من ابراهيم واسحق ويعقوب ناعتاً اياهم بفضل العلم والعمل دون جده اسمعيل . لِمَ يا ترى . فتأمل يا قارئ القرآن وادهش ان في الآيات الاربع السالفات ذكر اسحق ويعقوب كهبتي الرحمن لابراهيم بدون التفات الى اسمعيل كأنه لم يكن. وعبثاً ما حاول بعض الشراح خرط ذكره ولو بمعنى بعيد في ذرية ابراهيم المجعول فيها من لدنه تعالى النبوة والكتاب كما قد رأيت فيما مر من الملاحظات على تأويل تلك الآيات وفي هذه الآية نعت ذانك النبيان مع ابيهما نعتين لم ينعت بهما سواهما «اولي الايدي والابصار» أما اسمعيل فهو محصى من جملة الاخيار ان كان هو المراد في آية ٤٧. على انه يخال للقارئ المدقق من الآية وتأويلها كأن المذكور فيها ليس هو اسمعيل بن ابراهيم بل آخر لاشماله بالذكر مع اليسع وذي الكفل ولا يخفى ان المدة بين اسمعيل بن ابرهيم واليسع نحو الف واربع سنين (اي من ولادة اسمعيل الى بعثة اليسع نبياً) انظر في التوراة (تك١٦: ١٥ و١مل١٩: ١٩) فيلوح لك من ذلك ان القرآن يريد في هذه الآية ذكر اسمعيل آخر معاصراً لاليسع والا فذكر اسمعيل بن ابراهيم مع اليسع في الآية في غير محله ولو ذكر مع يوسف بن يعقوب لكان ذلك اقرب للفهم انه ابن ابراهيم اما من جهة التأويل فيقول عن اسمعيل واليسع وغيرهم «هم قوم آخرون من الانبياء تحملوا الشدائد في دين الله». فيرى ان هؤلاء الشراح لو اعتقدوا ان اسمعيل المذكور في الآية هو ابن ابرهيم لاشاروا الى نسبه لابرهيم لا سيما وان ذكر اسمه مقارن لذكر اسماء ابرهيم واسحق ويعقوب ولما ضموه مع قوم آخرين الامر الذي يشف عن بعد عصر هؤلاء القوم عن عصر ابرهيم وبنيه. فسواء كان المذكور في الآية ابن ابرهيم او غيره ليس لذلك اهمية باعتبار المسألة التي نحن في صددها ويكفي للقارئ النبيه ان الآية تذكر محمداً بهؤلاء الآباء الثلاثة مستثنية من ذلك جده اسمعيل كأنه غير مستحق ان يحصى بينهم. أفلا يشف ذلك على ان بركة الله للعالم هي في ذرية ابرهيم من اسحق ويعقوب دون

اسمعيل مصداقاً لوعده تعالى المكرر لكل منهم بدوره «وفي نسلك تتبارك جميع قبائل الارض» (راجع النظر في وجه ٨١)

تذييل

لقد بدا لنا من الآيات التي اوردناها في هذا الباب ومن تأويلها ثلاثة امور كلية . (الاول) ان بني اسرائيل افضل العالمين اذ اقام الله تعالى منهم الانبياء والمرسلين الذين اعظمهم وسيدهم المسيح كلمة الله وابنه الوحيد المدعو في القرآن «كلمة من الله وروح منه» الذي أتى بالبركة السنية للعالم اتماماً لوعده تعالى المذكور اعلاه. وخصهم بكتابه العزيز نوراً وهدى لمن اهتدى وتفصيلا لكل شيء (الثاني) ان غاية الله العظمى من جهة البشر هي في نسل ابراهيم اعني اسحق ويعقوب هبتي الله له (الثالث) ان الذبيح لله من اولاد ابرهيم هو اسحق. فينتج من ذلك نتيجتان (الاولى) ان ليس لاسماعيل وذريته نصيب في النبوة والكتاب فلا نبي مرسل الا من بني يعقوب ولا كتاب لله الا كتابهم (الثانية) ان محل الذبح لله هو في اورشليم لا في مكة.

ثم ان وجود مثل هذه الآيات في القرآن يقضي باعجب العجب لما انها تري القارئ بيان لا مزيد عليه عدم حيثية اسمعيل وذريته عند الله بل انما كل الحيثية والبركة لاسحق ويعقوب وآلهما كأن اسمعيل عدم في عدم. وطبيعي ان هذه الآيات تأتي لذهن المسلم الحر بالسؤالات الآتية لمَ يا ترى لم يدرج اسم اسمعيل مع اسحق ويعقوب كهبة الله لابراهيم أليس كل البنين هبة للاباء فما منع ذكر اسمعيل مع اخيه كهبة الله لابيه بل نقل الذكر من اسحق الابن الى يعقوب الحفيد كابن ولم يلتفت الى اسمعيل كانه ليس ابن ابراهيم او كانّ لا خير فيه يؤهله الى مثل هذه التجلة . هل يمكن ان يكون ذلك بدون داعٍ .كلا. وما هو هذا الداعي ليت شعري. واني لا أرى في تأويل علمائنا لهذه الايات وجوابهم على مثل هذا السؤال ما يروي الغليل فليس هو سوى مواربة ومحاولة تشف عما في صدورهم من الضيق والحصر اللذين القتهم فيهما هذه

الآيات. ولِمَ لما افرد اسمعيل بالذكر لم يقل وجعانا في ذريته النبوة والكتاب كما قال عن ذرية ابراهيم تبعاً لذكر اسحق ويعقوب وعلى الاقل وجعلنا في ذريته نبوة وكتاباً. ولِمَ لم يدرج اسمه مع اسم أبيه ابراهيم وأخيه وابن أخيه عند ما حض محمداً على ذكرهم كاولي الايدي والابصار أكان خالياً من العلم والعمل حتى لم يكن أهلاً لشمله بالذكر معهم فكيف هو اذاً نبي. الا ينتج من ذلك ان اسمعيل ليس كاخيه اسحق ولا كابن اخيه هبة الله لابيه ولا هو كابيه واخويه من أولي الايدي والابصار (أي المعارف والاعمال) انه ليس بنبي ولا ولياً فما بال القرآن اذا يدعوه نبياً بقوله «واذكر في الكتاب اسمعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً» (سورة مريم آية ٥٤) (ان كان هذا المذكور هو اسمعيل بن ابراهيم لان ذكره بين موسى وادريس يرينا انه ابن ابراهيم) وان كان هكذا صادقاً ورسولاً نبياً فيكون هبة عظيمة من الله لابيه فلمَ اذا لم يقل عنه ذلك حين ذكر تعالى هبة البنين لابراهيم بل اقتصر على اسحق وابن اسحق كوحيدين لابراهيم فحتماً ان في المسئلة اشكالاً لم يحل ولن يحل . . . اما نحن فنقول حقاً لا برهان أعظم واوسع وأوضح مما تقدم في القرآن على تخصيص بني اسرائيل باسنى النعم والبركات . وذو البصيرة اذا تدبر مثل هذه الآيات في القرآن وقابلها على امثالها في التوراة لا يرى ان نسل ابراهيم واسحق ويعقوب بركة الامم بل يسوع المسيح كلمة الله محيي الاموات والقلوب واي حاجة يا ترى تحتاجها أمم الارض مثل احياء قلوبهم وانفسهم فاذا كان عيسى المسيح المدعو في القرآن «روح الله» بمعنى انه يحيي الاموات والقلوب حسب تأويل الامام البيضاوي (مجلد اول وجه ٢٩١) وحسب الرازي سبباً لحياة الخلق في أديانهم (رازي مجلد ثالث وجه ٥١٢) وكان نسبه اسرائيلياً من ذرية يعقوب أفلا تكون صادقة كلمة الله في التوراة ليعقوب «وبنسلك تتبارك جميع امم الارض» (تك ١٤:٢٨) فعليه اذا تباركت أمة من الامم على الارض بركة تحيي منها القلوب والاجساد فانما تباركها بنسل يعقوب الذي هو المسيح فتأمل

الباب السادس

في الآيات اللائحة الى لاهوت المسيح

اذْ قَالَتِ ٱلْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ «آل عمران آية ٤٦ و٤٧»

(التفسير) ملخصه (كلمة منه) هو لان السبب المتعارف كان مفقوداً في حق عيسى عليه السلام وهو الاب فلا جرم كان اضافة حدوثه الى الكلمة اكمل واتم فجعل بهذا التأويل كأنه نفس الكلمة كما ان من غاب عليه الجود والكرم والاقبال يقال فيه على سبيل المبالغة انه نفس الجود ومحض الكرم وصريح الاقبال فكذا ههنا «المسيح» في ذلك مذاهب نأتي بملخص بعضها. منها انه مسح من الاوزار والآثام. ومنها انه كان ممسوحاً بدهن طاهر مبارك يمسح به الانبياء. ومنها انه مسحه جبريل بجناحه وقت ولادته ليكون ذلك صوناً له عن مس الشيطان. ومنها لانه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن قال أبو عمر بن العلاء المسيح الملك «وجيهاً في الدنيا والآخرة» في الدنيا بسبب النبوة وفي الآخرة بسبب علو المنزلة عند الله تعالى وأيضاً فهو وجيه في الدنيا بسبب انه يستجاب دعاؤه ويحيي الموتى ويبرئ الاكمه والابرص بسبب دعائه. ووجيه في الآخرة بسبب انه يجعله شفيع أمته ويقبل شفاعته فيهم (ثالثاً) انه وجيه في الدنيا بسبب انه مبرأ من العيوب التي وصفه اليهود بها ووجيه في الآخرة بسبب كثرة ثوابه وعلو درجته عند الله تعالى ثم ومن الاسئلة في كلمة منه هذا السؤال وهو الضمير في قوله اسمه عائد الى الكلمة وهي مؤنثة فلمَ ذكر الضمير. الجواب لان المسمى بها مذكر (رازي مجلد ٣ وجه ٦٧٦)

وتفسيرها في الجلالين «الملائكة» جبريل «وكلمة منه» اي ولد وجيهاً في الدنيا والآخرة. في الدنيا بالنبوة وفي الآخرة بالشفاعة والدرجات العلى ومن المقربين عنـد الله «ويكلم الناس في المهد أي طفلاً قبل وقت الكلام» (جزء اول وجه ٦٠)

(ملاحظة) لا يرى القارئ النبيه في تفسير كلمة منه والجواب على ضميري المؤنث والمذكر في الآية اصابة المرمى من وجهين (الاول) انه لايشم من الاية رائحـة الاضافة الى الكلمة حتى يسوغ للامام القول كان اضافة حدوثه الى الكلمة فيظهر ان حضرته اتى بها من قبيل التخمين والحدس واذا كان السبب المتعارف مفقوداً في عيسى وهو الاب وكان الوحي من الله عنه انه كلمة منـه ودل ذلك على أبوية الله له على نوع يجل ويسمو جداً عن ابوية الانسان لابنه ففي الاية لمحة باهية الى هـذا الامر السري لا اضافة الامام المذكور (الثاني) لا يعتبر جوابه لان المسمى بها مذكر جواباً لذلك السؤال لانه اذا كان الضمير في اسمه عائداً الى الكلمة فالكلمة تكون ذاتاً ولا فرق ان كان المسمى بها مذكراً أو مؤنثاً فلو قيل «ان الله يبشرك بكلمة منه اسمها مرثا» يبقى المعنى هو هو ان تلك الكلمة العائد اليها ضمير المسمى هي ذاتاً لتكون البشارة ابانت ذاتيتها واذا كانت هذه الكلمة المبشر بها ذاتاً من الله فما تكون ليت شعري هذه الذات. من المعلوم ان المسلم المتعصب لا يرى لزوماً للبحث في هذه القضية النسبية بحثاً قانونياً لما يخال له فيها من الالماع الى لاهوت المسيح بل يرى الاغضاء عنها أولى. الامر غير الجدير بذي التعقل. فأملنا كبير بالعاقل الحر الضمير ان لايتخطأ هذه النقطة الهامة قبل أن ينظر اليها من كل وجوهها ويمنحها حقها من التأمل والمقابلة مع ما يماثلها من آيات انجيل الله لان من شأن العاقل الحر عدم الاكتفاء بالتأويل البعيد ولو كان المأول من ذوي العلم والمقام بل لا بد له من استعمال عقله في تقدير الشيء حق قدره باعطائه حقه من التأمل والبحث والوزن والمقابلة . فانظر ان الامام لم يرَ في هذه الاية من بابها بل كمن يروم التخلص من نقطة صعبة كهذه أوّل الاية تأويلاً موافقاً لعقيدة

الاسلام غير مبال بما هو عليه من الوهن والبون الشاسع بينه وبين محجة الصواب او ان التعصب سدل على عقله حجاباً كثيفاً فلم ير نور معناها البهي

اما المذاهب المختلفة بشأن اسم المسيح فتبين عدم بلوغ القوم حقيقة معناه والمراد به وما ذلك الا لخلو القرآن من الاشارة الى معنى هـذا الاسم وذلك يوجه عقل القارئ النبيه الى سؤالين مهمين (الاول) لم امتاز عيسى بن مريم بهذا الاسم الذي لم يسم به سواه من الانبياء والمرسلين (الثاني) هل في شخص عيسى امر يفوق شخصية الانبياء والمرسلين اهله لهذا الاسم (المسيح) ومن يقدر على اعطاء الجواب الصحيح لهذين السؤالين غير كتاب الله التوراة والانجيل وهو ان الله مسحه بالروح القدس ملكاً على اسرائيل وكل الامم «واقامه رباً ومسيحاً» وانه استحق هذا الاسم وامتاز به لامتيازه في شخصيته عن كل ما سواه من انبياء الله كونه من الله ابنه وكلمته به الحياة الابدية فكما امتاز في القرآن بكونه كلمة من الله وروح منه امتاز بلقب المسيح كسيد العالمين وملكهم فالاولى علة الثانية والثانية دلالة على معنى الاولى فتأمل

ويعجبك أحد هذه المذاهب «لانه خرج من بطن امه ممسوحاً بالدهن فهل في احشاء مريم دهن واذا كان هذا الشخص العجيب في حاجة الى مسحة الدهن كبعض ملوك اسرائيل فايسر ان يفعل له ذلك على اثر ولادته واذا كان على زعمهم مسح في بطن امه فلا يكون ذلك بدهن بل بالروح القدس بمناسبة ما جاء في الانجيل حين بشرت امه به «الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك فلذلك ايضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله» (لو١: ٣٥) واذا كان عيسى ابن مريم مسح وهو في بطن امه فذلك من جملة الدلائل على كونه شخصاً فوق العادة يسمو جداً على انبياء الله ومرسليه كافة الذين لم يقل عن احدهم شي من مثل ذلك اما (تأويل) «وجيهاً في الدنيا والاخرة» وهو وجاهته في الدنيا بسبب النبوة وبسبب انه يستجاب دعاؤه ويحيي الموتى الخ . . وبسبب انه كان مبرأ من العيوب التي وصفه اليهود بها ووجاهته في الاخرة بسبب علو منزلته او درجته عند الله تعالى وانه يجعله شفيع امته المحقين فهو

لتأويل مقبول وذلك يشف ايضاً عن امتياز المسيح العالي عما سواء من الملائكة والبشر فانظر ان وصف المسيح بهاتين الآيتين النيرتين اشبه بحلقات سلسلة ذهبية كل حلقة منها تلقي نوراً على ما قبلها وتزيد معناها جلاء ووضوحاً وهي جملة تبين غرابة المسيح كلمة الله انه نبي لا كالانبياء ومسيح لا كالمسحاء بل هو المسيح العجيب الغريب الولادة المقتدر والوجيه في الدارين فتأمل

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَاةَ وَٱلإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلأَكْمَهَ وَٱلأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ «سورة المائدة آية ١١٣»

(التفسير) فيه وجهان (الاول) ان الروح هو جبريل والقدس هو الله كأنه تعالى اضافه الى نفسه تعظيماً له (الثاني) ان الله خص عيسى بالروح الطاهرة النورانية المشرقة العلوية الخيرة «تكلم الناس في المهد وكهلاً» اما كلام عيسى في المهد فهو قوله اني عبد الله أتاني الكتاب وكذا في حال الكهولية من غير ان يتفاوت كلامه في هذين الوقتين وهذه خاصية شريفة كانت حاصلة له وما حصلت لاحد من الانبياء قبله ولا بعده (رازي مجلد ثالث وجه ٦٩١)

(ملاحظة) لم يبين لنا الامام في تفسيره هذه الآية أي الوجهين صواب

وأيهما خطأ أو أيهما أقرب الى الصواب الامر الجدير بالمفسر. انا نرى الوجه الاول خطأ باعتبار القرآن وخطاؤه ظاهر من وجهين (الاول) انه لم يقل في القرآن لمحمد مثل ذلك حال كونه يقول له في القرآن « نزله روح القدس من ربك بالحق» «نزل به الروح الامين على قلبك» انظر سورة النحل آية ٩٩ و١٠٠ والشعراء آية ١٨٩ و١٩٠

(الثاني) ان المسيح سمي في القرآن «روح من الله» ومن تفسير ذلك انه روح من الارواح الشريفة العالية القدسية اضافه تعالى الى نفسه لاجل التشريف والتعظيم فبقي ان المراد بقول الآية ايدتك بروح القدس هي تلك الروح العالية أو هي التي خص بها حسب الوجه الثاني على ان في ذلك اشكالاً لدى اهل القرآن لا أرى لهم سبيلاً الى حله. وهو اذا كان المسيح روحاً من الله أي من الارواح الشريفة العالية القدسية شرفها الله وعظمها باضافتها الى نفسه فهي لامراء روح القدس فكيف اذ ذاك يخاطبه اني ايدتك بروح القدس هل يؤيد روح القدس بروح القدس وهل المسيح وهو تلك الروح السامية المقام عند الله يحتاج الى تأييد روح دونها تقدرها على عمل الآيات المعجزات كلاّ بل ان هذا التأييد انما يجوز على من ليس من روح الله

ثم ان هذه الاية وتفسيرها أعظم دليل على سمو المسيح ورفعة شأنه فوق كل الانبياء والمرسلين لما انه تعالى خصه بالروح الطاهرة النورانية المشرقة العلوية الخيرة فنسأل المسلم المخلص ما هذه الروح التي خص بها المسيح من الله أذات هي ام نعمة فان قال نعمة قلنا له وما تلك النعمة أو حي هي أم قداسة فإن قال هي نعمة الوحي او التقديس نقول بطل القول ان المسيح خص بها لانعامه بمثلها على بقية انبيائه ومرسليه ويكون عبثاً القول «روح منه» وان قال بل ذات فيكون قد وافق معتقد أصل الانجيل الذي هو ان المسيح ذو طبيعتين الواحدة من الله والاخرى من الانسان فانى له الخروج من هذه الدائرة والسبيل الى حل هذا المشكل ؟

يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى ٱللهِ إِلاَّ ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِٱللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ ٱنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا ٱللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ وَكَفَى بِٱللهِ وَكِيلاً «سورة النساء آية ١٦٨»

(التفسير) (خلاصته) لا تغلوا في دينكم لا تفرطوا في تعظيم المسيح «وكلمته» المعنى انه وجد بكلمة الله وامره من غير واسطة ولا نطفة «وروح منه» ففي ذلك وجوه شتى منها (اولا) انه من نفخة جبريل. والمراد من قوله «منه» التشريف والتفضيل كما يقال هذه نعمة من الله (الثاني) انه كان سبباً لحياة الخلق في اديانهم ومن كان كذلك وصف بانه روح. (الثالث) روح منه اي رحمة منه فلما كان عيسى رحمة من الله على الخلق من حيث انه كان يرشدهم الى مصالحهم في دينهم ودنياهم لا جرم سمي روحاً منه (الرابع) قوله «روح» ادخل التنكير في لفظ روح وذلك يفيد التعظيم فكأن المعنى وروح منه اي روح من الارواح الشريفة العالية القدسية وقوله منه اضافة لذلك الروح الى نفسه لاجل التشريف والتعظيم ومع ذلك فهو رسول من رسل الله فآمنوا به كايمانكم بسائر الرسل ولا تجعلوه الهاً (رازي مجلد ثالث وجه ٥١٢ و٥١٣)

وملخص تفسيرها في البيضاوي «وكلمته القاها» اوصلها اليها وحصلها فيها «وروح منه» وذو روح صدر منه لا بتوسط ما يجري مجرى الاصل والمادة له وقيل سمي روحاً لانه كان يحيي الاموات والقلوب (مجلد اول وجه ٢١٩)

وتفسيرها في الجلالين يا اهل الانجيل لا تتجاوزوا الحد في دينكم ولا تقولوا على الله الا القول الحق من تنزيهه عن الشرك والولد «انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها» اوصلها الى مريم وروح اي ذو روح «ومنه» اضيف اليه تعالى تشريفاً وليس كما زعمتم ابن الله او الهاً (جزء اول وجه ١٠٨)

(ملاحظة) ننظر اولاً في قول الآية «يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم» يعني لا تفرطوا في تعظيم المسيح حتى تعتبروه الهاً وابن الله فالخطاب في الاية لاهل الانجيل فبقوله يا اهل الكتاب يختم على ان الكتاب الحق بيدهم وهو من جملة اقوال القرآن الدالة على امانة اهل الكتاب على كتابهم بحفظهم اياه من دنس التحريف كما قد رأيت بالكفاية في الباب الرابع وعليه فكان الجدير بمحمد ان يبحث اولاً في الانجيل قبل ان ينسب لاهله الغلو في دينهم حتى اذا رأى الانجيل يصف المسيح بن مريم الهاً وابن الله يسلم بذلك او على الاقل يعذر اهله على ايمانهم بالمسيح كابن الله واذا لم ير وصف المسيح ونعته في الانجيل اكثر من عبد الله ورسوله يؤنبهم بتقولهم على الله ما لم ينزله اليهم في كتابه الذي بين ايديهم كما قيل انه فعل في حكمه بامر الزانيين من يهود خيبر وهذا كان الاحرى به لانه نسب الغلو لاهل الكتاب في دينهم بدون دراسة كتابهم حق الدراسة يعد ظلماً فلا يجدر بالمسلم العاقل الذي يترنم بهذه الآية اغضاء الطرف عن قوة استهلالها «يا اهل الكتاب» فاهماً منها ان النصارى اهل الكتاب اي ان كتاب الله الحق هو عندهم وهم اهله ومن ثم لا يليق به ان ينسب لهم الغلو في دينهم قبل الاطلاع الوافي على كتابهم الالهي فعوض ان يقول حسب الآية يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم كان يجب ان يقول يا اهل الكتاب ايتوني بكتابكم لارى فيه صحة او بطلان دعواكم ان عيسى بن مريم اله او ابن الله

ثم اما كون المسيح رسول الله فهذا حقيقي غير انه هو كلمة الله وابنه وذلك قلما يفرق عن نسبه في الآية «كلمته وروح منه» والا يليق ارسال الابن في بعض المهام كما يرسل العبد فقد يرى الملك احياناً وجوب ارساله ابنه في مهمة دون غيره ويقال عن ابنه في تلك الارسالية انه رسول الملك وابنه ولان للمسيح هذه النسبة الالهية «ابن الله» في الانجيل تكراراً بصريح النص (انظر مت ١٤:٣٣ ومر ١:١ ولو ١:٣٥ ويو ١:٣٤ و٤٩ ورؤ ٢:١٨) فقد دعاه القرآن بما يقرب من ذلك اذ هو لم يكتف بنعته بالرسالة قائلاً انما هو رسول

الله بل زاد انه كلمته وروح منه فليس النصارى اذاً مغالين في دينهم باعترافهم ان المسيح هو ابن الله بل هم شاهدون بالحق المنزل في الكتاب الذي الله امنهم عليه ودعاهم اهله فتأمل . اما من جهة تأويل الآية الذي معظمه في كلمته وروح منه فأقول بخصوص تأويل «وكلمته» ان تأويلها في الرازي ابعيد جداً عن محجة الصواب وهو احرى به ان يعتبر هرباً لا تأويلاً قال المعنى انه وجد بكلمة الله وامره من غير واسطة ولا نطفة . جيداً وآدم وكل الخلائق وجدت في البدء بكلمة الله وامره فهل قيل في القرآن عن احد منها انه كلمة الله . آدم والمسيح كلاهما بدون اب وكلاهما نيان ومع ذلك فقد امتاز المسيح عن آدم بنسبته في القرآن لله «كلمته وروح منه» فعلى موجب تأويل الامام يكون آدم ايضاً كلمة الله فهل يقول ذلك فكان على الامام عوض قوله « المعنى انه وجد بكلمة الله وامره من غير واسطة ولا نطفة » ان يقول وما الداعي يا ترى لولادة المسيح على خلاف المجرى الطبيعي هل هو لانه كلمة الله وروح منه نعم كان الاحرى بالامام ان يستدل بولادة المسيح هكذا على السر المتضمن في نسبته لله «كلمته وروح منه» معتبراً تلك النسبة الالهية باعثاً لولادته بدون اب . لا ان يتخذ ولادته هكذا سبباً لتلك التسمية «كلمته» ولان ولادة المسيح بدون اب لم تكن من ضرورة تدعو اليها كما في مسئلة خلق آدم التي يستدل منها انه لابد من ان يكون الباعث عليها عجيب واذا المسلم اغضى طرفه عن الانجيل الذي يبين له بوضوح وصراحة ذلك الباعث اقله فليعتبر نسبة المسيح لله في القرآن ككلمته وروح منه باعثاً على ولادته على خلاف المجرى الطبيعي وعليه فان تاويل الرازي المذكور عديم الاعتبار

اما تفسير «وكلمته» في البيضاوي فيفرق كثيراً جداً عما فسر الرازي بقوله «القاها» اوصلها اليها وحصلها فيها وكذا في الجلالين اوصلها الى مريم فانظر ان الامام البيضاوي جعل مريم كظرف لكلمة الله واذا كانت كلمة الله ذاتاً كما يلمح من الآية الاولى في هذا الباب (راجع وجه ٩٩ و١٠٠) فيكون ايصالها من الله الى مريم وتحصيلها فيها من نوع الحلول وليس من فرق بين

القول ان الله حصل كلمته في مريم وبين القول ان كلمة الله حلت في مريم واذا كانت كلمة الله ذاتاً حلت في احشاء مريم فهي الذات التي بشرت بها « اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح » او هي حسب الانجيل ابن الله الوحيد الكائن الازلي وعلى كل لا نقدر ان نحكم هل مراد البيضاوي بهذا التأويل هو الحلول ام لا وانما سواء كان مراده هذا او ذاك فيرى ان تأويله موافق كل الموافقة للقول (ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح) فالحاصل من هذه الآية ومن تفسيري البيضاوي والجلالين المتقدمين ان الكلمة التي بشرت بها مريم هي ذات كانت قبل حلولها فيها وان ذلك هو العلة لولادة المسيح منها من دون اب

اما تأويلهم «وروح منه» فان الامام الرازي يورد على ذلك وجوهاً مختلفة كما قد رأيت ويتركها بدون ان يحكم ايها صواب وايها خطأ اما نحن فلا بأس علينا من النظر الى كل من هذه الوجوه بما يستطاع من الايجاز فمن جهة الوجه الاول والرابع اللذين هما كما ترى كوجه واحد نقول (اولاً) ان القول عن المسيح وروح منه انه من نفخة جبريل يرفع جبريل كما لا يخفى على النبيه الى مقام الالوهية لاقتداره على الخلق بنفخته وليس فقط على الخلق بل على خلق نبي ومسيح تسامى على ما سواه من الانبياء . فالقائل بذلك قد ساوى جبريل بالله وهو لا يدري كما ترى في مسألة خلق الله آدم اذ ترى الآية «فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» (سورة الحجر آية ٣٠) فعلى موجب تأول المؤول ان الله تعالى وجبريل سيان في القدرة على ايجاد حي بالنفخة نعوذ بالله من كفر كهذا . فكاني بالمأول اذ تعذر على معدة ذهنه هضم القول ان المسيح روح من الله لما انه يبين علو منزلته فوق كل نبي ومرسل ويواخي نص الانجيل وايمان النصارى بالمسيح رام اخفاض كلمة الله الى ما هو دون الملائكة بما ذهب فتهور الى وهدة الضلال ولم يدر . ذلك جزاء من يحاول ابعاد الآيات عن معناها الاقرب ومفادها الاقوم لعدم رواقه في عينيه الغاشيتين .

اما عن الوجه الاول والثالث المفيدين ان المسيح سمي روحاً من الله لانه كان سبباً لحياة الخلق الى آخر القول أقول ما من بصير حر الفكر يقدر ان يرى استطاعة المسيح على احياء الخلق في اديانهم سبباً لوصفه بانه روح من الله بل انما ذلك دليل له على انه روح من الله ولكونه روحاً من الله له القدرة على احياء الخلق فعجباً لهؤلاء المأولين كيف يعاكسون الآيات ويلوون الحقائق عن استقامتها بانهم يجعلون عمل المسيح باحيائه الخلق سبباً لوصفه بروح من الله لا ان كونه روحاً من الله يستطيع ذلك ومن ليت شعري يستطيع احياء الخلق من موتهم الروحي الا روح الله او ابن الله وما اشبه القول عن المسيح انه سبب لحياة الخلق في اديانهم بالقول الانجيلي منه «واما انا فقد اتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم افضل . انا هو القيامة والحياة من آمن بي ولو مات فسيحيا» (يو١٠:١٠و١١:٢٥) وهل من فرق يعتبر بين قول المسيح هذا عن نفسه والقول في البيضاوي عنه. وقيل سمي روحاً لانه كان يحيي الاموات والقلوب (انظر وجه١٠٤) فمن من الانبياء غير المسيح قيل عنه مثل ذلك حقاً انه مهما اجهد الناس انفسهم باخفاء انوار ابن الله فلا يستطيعون نوال مرامهم بل رغماً عن كل احتياطاتهم تشع بهائها الساطع من خلال اقوالهم ثم انه كما كان البون عظيماً بين الرازي والبيضاوي في تفسير «وكلمته» كذلك الامر بينهما في كلمة «وروح منه» فان الاول كما رأيت يذهب في بعض الوجوه التي اوردها انه روح من الارواح الشريفة العالية. والثاني ان المسيح ذو روح صدر منه (يعني من الله) لا بتوسط ما يجري مجرى الاصل والمادة له فما اقرب قول البيضاوي الى نقطة الحق المعلن في انجيل الله. لانه اي فرق جوهري بين القول ان المسيح روح صدر من الله وبين القول ان المسيح أتى من عند الله وهو ابن الله فانظر ما اعظم التلميح في هذه الآية وتأويلها الى لاهوت المسيح ابن الله واعجب من ان الناطق بهذه الآية ومؤوليها بعد كل هذا البيان منهم عن غرابة المسيح وسمو طبيعته وامتيازه بنسبته لله هكذا «كلمته وروح منه» لا يعتبرونه اكثر من نبي مرسل بمثابة باقي الانبياء.

والمرسلين ثما مثلهم بذلك الا مثل من يصف رجلاً بصفة ابن الملك بالنسبة والمنزلة والحلية ثم يسلبه كل ذلك بعدم اعتباره اياه اكثر من رجل من حاشية الملك وسفرائه فتأمل

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا «سورة النساء آية ١٥٦»

(التفسير) وفيه اسئلة اهمها انه ان جاز ان يقال ان الله تعالى يلقي شبه انسان على انسان آخر فهذا يفتح باباً للسفسطة فانا اذا رأينا زيداً فلعله ليس بزيد ولكنه التي شبه زيد عليه وعند ذلك لا يبقى النكاح والطلاق والملك موثوقاً به وايضاً يفضي الى القدح في التواتر لان خبر التواتر انما يفيد العلم بشرط انتهائه في الآخرة الى المحسوس فاذا جوزنا حصول مثل هذه الشبهة في المحسوسات توجه الطعن في التواتر وذلك يوجب القدح في جميع الشرائع وليس لمجيب يجيب عنه بان ذلك مختص بزمان الانبياء عليهم الصلاة والسلام لانا نقول لو صح ما ذكرتم فذاك انما يعرف بالدليل والبرهان فمن لم يعلم ذلك الدليل وذلك البرهان وجب ان لا يقطع بشيء من المحسوسات ووجب ان لا يعتمد على شيء من الاخبار المتواترة وبالجملة ففتح هذا الباب يوجب الطعن في التواتر والطعن في التواتر يوجب الطعن في نبوة جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام فهذا فرع يوجب الطعن في الاصول فكان مردوداً

واختلفت مذاهب العلماء في هذا الموضوع وذكروا وجوهاً (الاول) قال كثير من المتكلمين ان اليهود لما قصدوا قتله رفعه الله تعالى الى السماء فخاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة من عوامهم فاخذوا انساناً وقتلوه وصلبوه ولبسوا على الناس انه المسيح والناس ما كانوا يعرفون المسيح الا بالاسم لانه

كان قليل المخالطة بين الناس وبهذا الطريق زال السؤال. لايقال ان النصارى ينقلون عن اسلافهم انهم شاهدوه مقتولاً لانا نقول ان تواتر النصارى ينتهي الى اقوام قليلين لا يبعد اتفاقهم على الكذب

(الطريق الثاني) انه تعالى القى شبهه على غيره ثم فيه وجوه

(الاول) ان اليهود لما علموا انه حاضر في البيت الفلاني مع اصحابه امر يهوذا رأس اليهود رجلاً من اصحابه يقال له طلطاوس ان يدخل على عيسى عليه السلام ويخرجه ليقتله فلما دخل عليه اخرج الله عيسى عليه السلام من سقف البيت والقى على ذلك الرجل شبه عيسى فظنوه هو فصلبوه وقتلوه

(الثاني) وكلوا بعيسى رجلاً يحرسه وصعد عيسى عليه السلام في الجبل ورفع الى السماء والقى الله شبهه على ذلك الرقيب فقتلوه وهو يقول لست بعيسى

(الثالث) ان اليهود لما هموا باخذه وكان مع عيسى عشرة من اصحابه فقال لهم من يشتري الجنة بان يلقى عليه شبهي فقال واحد منهم انا فالقى الله شبهه عليه فاخرج وقتل ورفع الله عيسى عليه السلام

(الرابع) كان رجل يدعي انه من اصحاب عيسى عليه السلام وكان منافقاً فذهب الى اليهود ودلهم عليه فلما دخل مع اليهود لاخذه القى الله تعالى شبهه عليه فقتل وصلب وهذه الوجوه متعارضة متدافعة والله اعلم بحقائق الامور (رازي مجلد ثالث وجه ٥٠١ و٥٠٢)

وهكذا تفسير البيضاوي لهذه الآية من جهة عرض الجنة على من يفديه من اصحابه ومن جهة الرجل الذي كان ينافق والرجل المدعو طيطاوس الذي دخل يفتش عليه ولم يجده (مجلد اول وجه ٣١٥)

(ملاحظة) انه وان يكن ليس في هذه الآية الماع الى لاهوت المسيح كسالفاتها في هذا الباب فلا شك انها تدل على علو منزلة عيسى عند الله فوق الانبياء والمرسلين كافة اذ نقله حياً الى السماء رغماً عن اعدائه وطالبي نفسه ثم ربما يستغرب القارئ توجيه الآية نحو المسيح فقط انكاراً لدعواهم انهم قتلوا المسيح صلباً بدون ادنى تعرض لا فيها ولا في غيرها من القرآن لاعتقاد

النصارى المصادق لدعوى اليهود هذه على ان استغرابه يزول اذا عرف كثرة اليهود جيران محمد في المدينة وندرة وجود النصارى في تلك الناحية وعدم اطلاع محمد واصحابه على الاناجيل

فنقول ايخفى على محمد ان مسألة صلب المسيح وموته بالجسد بايدي اليهود هي غاية التوراة ومحور الانجيل فالانبياء منذ القديم انبأوا عن ولادة المسيح وحياته وموته قتلاً كذبيحة عن الخطية كما ترى ذلك في اسفار التوراة ولا سيما في نبوتي اشعيا ودانيال (اش اصحاح ٥٣ ودا ٩:٢٤ — ٢٧) والمسيح قبل موته انبأ تلاميذه مراراً انه عتيد ان يسلم الى اليهود فيصلبونه ويقتلونه وفي اليوم الثالث يقوم . ورسله الذين يدعوهم القرآن حواريه كان جل كرازتهم به انه مات مصلوباً بايدي اليهود فداء عن الخطاة وانه قام في ثالث يوم من موته ورفع الى السماء . وهنا نقول اذا كان اليهود والنصارى اهل الكتاب وهو لم يمس منهم بتحريف ما كما رأيت فيما مر في الباب الرابع فبأي مسوغ ينكر عليهم كذا قضية هي اشهر واجل قضاياه . فكان الاولى بمحمد ان انكر الكتاب جملة من ان ينكر على اهله قضية هي اساس الكتاب ورأسه ولكن كيف يؤمن بالكتاب التوراة والانجيل الذي بين يديه داعياً اليهود والنصارى اهله زاعماً انه مصدق لما معهم (انظر سورة البقرة آية ٩٧) ثم ينكر مفاده وغايته الجلية بخصوص المسيح ذلك من باب نقض المرء قوله وثلمه شهادته بلسانه الامر الذي لا يجد بمثله . لعمرك كيف هو مصدق لما مع اهل الكتاب يعني كتابهم ثم ينكر عليهم قضية هي اوسع وابين مما جاء فيه فاين ذاك التصديق فتأمل . ان الآية المشار اليها من سورة البقرة ليست هي ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما في التوراة بل مصدق لما معهم اي توراتهم الحالية الكائنة معهم الامر الدال على ثقة محمد بسلامة الكتاب حينئذ من شائبة التحريف وعلى امانة اهله عليه فان قال قائل ان الآية في سورة البقرة تعني اليهود فقط وتوراتهم لا تنص انهم قتلوا عيسى ابن مريم قلنا (اولاً) ان في التوراة انباء صريحاً عن المسيح الذي سوف يأتي ويموت عن

خطايا شعبه كما تقدمت الاشارة الى ذلك (ثانياً) ان التصديق المذكور هو على الكتاب كافة التوراة والانجيل بدليل ما جاء في الآية « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وانزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس » (آل عمران آية ٢) وايضاً وانزلنا عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب (يعني التوراة والانجيل) (سورة المائدة آية ٤٩) ومحمد يحث اهل الانجيل على الحكم بما انزل الله فيه قائلا «وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه» (المائدة آية ٤٨) حسناً. وليس من مسلم عاقل ينكر ان محمداً مصدق الانجيل الكائن يومئذ بيد النصارى فيقدر اولئك النصارى ان يقولوا له كما نحن اليوم يا أبا القاسم انت تحثنا على الحكم بما انزل الله في الانجيل الذي معنا. حسناً. ان الله انزل في الانجيل قصة صلب المسيح واماتته بايدي اليهود وقيامته في اليوم الثالث من موته وهو مشحون بهذه الخبرية على اساليب شتى وهي كما لا يخفى عليك مدار تعاليم الرحمة والنعمة فيه التي لو نزعت منه لاشبه بنواة نزع منها لبها فان كنت حقاً مصدقاً لما بين يديك من الكتاب الذي معنا فيلزم ان يكون ايمانك بالمسيح كايماننا فتكون مسيحياً نظيرنا وداعياً من دعاة زبنا والا فدعواك انك مصدق لما بين يديك من الكتاب الذي معنا غير صحيحة لان التصديق بالشيء وتكذيبه نقيضان لا يجتمعان. حقاً ان اغرب ما جاء في تاريخ البشر هو الاقرار بصحة الكتاب الكائن بايدي اليهود والنصارى والدعوى بتصديقه ثم انكار اهم اعلاناته ومضامينه

اما من جهة التأويل لهذه الآية فنقول (اولاً) ان الجواب على السؤال او بالحري الاعتراض المتين على مفادها لا يعتبر جواباً او حلاً له الا في اعين السذج الاغبياء على ان ذلك كلما هو في وسع المدافع الذي لما لم يرَ له مناصاً من المجاوبة قال ما قال كالباني على الرمال زاعماً ان بذلك قد زال السؤال وانا لنشكر المنتقد اذ كفانا مؤنة التعب بانشاء ما يماثل انتقاده (ثانياً) من اين يعرفون ان المسيح ما كانت الناس تعرفه الا بالاسم لانه كان قليل المخالطة للناس ومن المسلم ان حياة المسيح واعماله على الارض لا تعرف الا من انجيله

وانجيله يخبرنا ان المسيح عاش ثلاثين سنة مع والدته يشتغل بحرفة النجارة في الناصرة وانه كان معروفاً بيسوع الناصري النجار ويخبرنا انه بعد ذلك ترك حرفته وعاش نحو ثلاث سنين كان لا يفتر فيها عن الجولان في أراضي اليهودية سهولها وجبالها مدنها وقراها منادياً بملكوت الله ومبشراً بنعمته داعياً الناس الى التوبة والايمان عاملاً آياته ومعجزاته الخيرية حتى ذاع خبره في جميع سورية (انظر مت ٤:٢٤) فكانت تتقاطر عليه الناس من أنحاء البلاد حاملين اليه جميع السقماء والمرضى والمجانين لينالوا منه الشفاء فكيف ما كانت الناس تعرفه الا بالاسم . المسيح نور أشرق في البلاد وهل يخفى النور على ذي بصر . ألا يقول عنه القرآن انه كان يحيي الموتى ويبرئ الاكمه والابرص وانه أنزل مائدة من السماء فكيف اذاً كان غير معروف من الناس . الطبيب الماهر يبعد صيته بسرعة فتقصده الناس من كل صوب . فكيف اذا كان رجل كعيسى يحيي الموتى ويشفي المرضى بمجرد كلمته او وضع يده وهو فاتح صدره الرحيب لقبول كل من يأتي اليه بلطف وحب عجيب لا يطير صيته على جناح السرعة وتتقاطر اليه الجماهير والافراد لرؤياه وسماع كلامه ونوال بركاته فعار على من له ذرة من العقل أن يقول كذا قولاً ساقطاً لارواج له عند ذوي العلم

أما قولهم لانا نقول ان تواتر النصارى ينتهي الى أقوام قليلين لا يبعد اتفاقهم على الكذب فهو مدحوض من أربعة وجوه (الاول) ان النصارى ليسوا ناقلين عن اسلافهم خلفاً عن سلف قصة صلب المسيح كما يموّهون بل هي غاية كتابهم وعمدة انجيلهم كما تقدم بيانه (الثاني) ان ما جاز حسب زعمهم على تواتر النصارى الموهوم جاز تواتر المسلمين (الثالث) ان اهل العلم من المسلمين يعتبرون شهادة التواتر كحقيقة لامراء فيها (راجع وجه ١١٠و١١١ (الرابع) على افتراض ان ليس للنصارى كتاب او ان كتابهم تلاشى من الارض فتواتر قصة صلب المسيح عندهم ينتهي الى حواريه وامه فهل في عرفهم ان حواريي المسيح كاذبون بقصهم هذا الخبر على الناس او هل يقولون بامكان

اتفاقهم على الـكذب وهم المسمون في القرآن انصار الله (انظر سورة آل عمران آية ٥٠)

اما كلامهم في الطريق الثاني من القاء الله شبه عيسى على انسان آخر فهو كما ترى من نوع الخبط الصبياني غير المستحق الرد عليه وانظر ان القوم بمذاهب متضاربة في هذه المسئلة وكيف يتفقون في امر لا اساس له غير ما جاء في قرآنهم وهو مناف للواقع وللاصول المقررة كما رأيت فيما تقدم وجه ١١٠ و١١١ ونحن لانؤاخذهم كثيراً والآية تنص انهم ما صلبوه وما قتلوه ولكن شبه لهم فكأنهم لما رأوا انفسهم مضطرين الى تأويل الآية ولا تاريخ لهم يعتمد عليه وكيف شبه لهم ولا تلميح الى ذلك في الكتاب ولو انه على نوع بعيد بل بالحري ما ينافيه كما تقدم لجأوا الى تصورات المخيلة فهام كل منهم في جهة تباين الاخرى الامور التي لم تتفق في سوق ذهن الامام الذي اسفنا انه بخل علينا باعطاء فكره من هذا القبيل اذ وقف كمتفرج في ساحة خوض أولئك بمراد الآية وتأويل نصها شبه لهم ثم زانها وقال ان هذه الوجوه متعارضة متدافعة والله اعلم بحقائق الامور يعني انه لا يقدر ان يقطع بصحة وجه منها. جيد قولك هذا ايها الامام غير ان الله العالم بكل الامور اعلن لك ولاسلافك من المسلمين حقيقة صلب المسيح وموته بالجسد في انجيله بأيدي النصارى المصدق عليه من نفس القرآن الذي انت مفسره فبعد كل هذا اما ينبغي لك ان تتخذ الانجيل نبأ لك من الله فيه بخصوص هذه المسئلة التي هي محور الـكتاب وغايته

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

«سورة آل عمران آية ٤٨»

(التفسير) في تفسير هذه الآية مسائل وآراء يطول شرحها نأتي بأهمها «اني متوفيك» في تأويل هذه الكلمة وجوه (الاول) متوفيك أي اني متمم عمرك فحينئذ اتوفاك فلا اتركهم حتى يقتلوك بل انا رافعك الى سمائي (الثاني) متوفيك اي مميتك وهو مروي عن ابن عباس ومحمد بن اسحق قالوا والمقصود ان لا يصل اعداؤه من اليهود الى قتله ثم انه بعد ذلك أكرمه الله بان رفعه الى السماء ثم اختلفوا على ثلاثة وجوه (احداها) قال وهب — توفي ثلاث ساعات ثم رفع الى السماء (ثانيها) قال محمد بن اسحق — توفي سبع ساعات ثم احياه الله ورفعه (وثالثها) قال الربيع بن انس — انه تعالى توفاه حين رفعه الى السماء قال الله تعالى يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها . ثم يقول وبقي من مباحث هذه الاية موضع مشكل وهو ان نص القرآن دلّ على انه تعالى حين رفعه الى السماء القى شبهه على غيره على ما قال «ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم» ويورد على ذلك عدة اشكالات مستطيلة الكلام نأتي بأهمها ملخصاً : منها (الاشكال الثالث) انه تعالى كان قادراً على تخليصه من اولئك الاعداء بأن يرفعه الى السماء فما الفائدة في القاء شبهه على غيره وهل فيه الا القاء مسكين في القتل من غير فائدة اليه .

(الاشكال الرابع) اذ القي شبهه على غيره ثم انه رفع بعد ذلك الى السماء فالقوم اعتقدوا فيه انه هو عيسى مع انه ما كان عيسى فهذا كان القاء لهم في الجهل والتلبيس وهذا لا يليق بحكمة الله تعالى (الاشكال الخامس) ان النصارى على كثرتهم في مشارق الارض ومغاربها وشدة محبتهم للمسيح عليه السلام وغلوهم في امره اخبروا انهم شاهدوه مقتولاً مصلوباً فلو انكرنا ذلك كان طعناً فيما ثبت بالتواتر والطعن في التواتر يوجب الطعن في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوة عيسى بل في وجودهما ووجود سائر الانبياء عليه الصلاة والسلام وكل ذلك باطل

(والجواب على الاشكال الثالث) فانه تعالى لو رفعه الى السماء وما القى شبهه على الغير لبلغت تلك المعجزة الى حد الالجاء (والجواب عن الرابع) ان

تلاميذ عيسى كانوا حاضرين وكانوا عالمين بكيفية الواقعة وهم كانوا يزيلون ذلك التلبيس . (الجواب عن الخامس) ان الحاضرين في ذلك الوقت كانوا قليلين ودخول الشبهة على الجمع القليل جائز والتواتر اذا انتهى في آخر الامر الى الجمع القليل لم يكن مفيداً للعلم وبالجملة فالاسئلة التي ذكروها امور تتطرق اليها الاحتمالات من بعض الوجوه ولما ثبت بالمعجز القاطع صدق محمد صلى الله عليه وسلم في كل ما اخبر عنه امتنع صيرورة هذه الاسئلة المحتملة معارضة للنص القاطع والله ولي الهداية (رازي مجلد ثاني وجه ٦٩٠و٦٩١و٦٩٢)

وتفسيرها في البيضاوي هو «اني متوفيك» اي مستوفي اجلك ومؤخرك الى اجلك المسمى عاصماً اياك من قتلهم او قابضك من الارض او متوفيك نائماً اذ روي انه رفع نائماً او مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج الى عالم الملكوت. وقيل اماته الله سبع ساعات ثم رفعه الى السماء واليه ذهبت النصارى ورافعك اليّ الى محل كرامتي ومقر ملائكتي (مجلد اول وجه ٢٠٩)

(ملاحظة) انا نرى في هذه الآية وتأويلها ثلاث نكت (النكتة الاولى) هي منافاة هذه الآية لسالفتها في هذا الباب من حيث موت عيسى وعدمه فان مراد الاولى كما رأيت ان عيسى لم يمت بل رفع حياً الى السماء ومفاد هذه ان الله اماته ثم احياه ورفعه الى السماء فكيف وهما آيتان من عند الله تنقض احداهما الاخرى حاشا لله ان يأتي بمثل ذلك ومحال كيانه منه تعالى . لا جرم ان هذا التناقض البين بين هاتين الآيتين يلقي المسلم المخاص في عربسة لا يرى الى الانفلات منها سبيلاً والقول في الوجه الاول من تفسير هذه الآية متوفيك يعني متمم عمرك لا يستحق في عينيه شيئاً من الاعتبار كما لم يستحق عند غيره من اهل العلم كما رأيت في الوجه الثاني من تأويلها وذلك من وجهين (الاول) لان كلمة وفاة وتوفي في اللغة لا تفيد اكثر من موت ومات (والثاني) لانه لا يرى ان قائلي هذا القول قالوه الا عن افلاس الفكر والانحصار المحرق من جرى التباين والتناقض البين بين الآيتين فقالوه املا باقناع البسيط لا اقناعهم

فنطالب اهل القرآن اما بالاقرار بتناقض الآيتين واما بيان عدمه ان كان في حيز امكانهم

(النكتة الثانية) بقاء الاشكالات الواردة في مباحث هذه الآية غير محلولة لان الجوابات المرقومة عليها ليست كما ترى دفعاً لها بل بالحري تزيدها مكانة واعتباراً في اعين اهل الدراية والانصاف فكأني بالامام اذ ازعجه متانتها وعظم حجتها وكونها غير قابلة الدفع والدحض كما يلوح لك من كلامه الاخير في تأويل الآية وكان هو آخذاً بشرح القرآن لفائدة ابناء دينه رأى عاراً عليه عدم المجاوبة كلياً فرام سد الثغرة ولو بتبنة فقال ما قال كمحارب حتى يقال جاوب ولعل ذلك منه على أمل قبوله عند بسطاء المسلمين واطفالهم لان ما الضرر اذا بلغت معجزة رفع عيسى الى السماء بدون القاء شبهة على غيره حد الالجاء (كأنه يعني الالجاء الجاء الكافر الى الايمان بواسطة المعجزة الزاهرة لعينيه او الجاؤه الى ترك ما كان قصده من ايذاء ذلك النبي) والا تكون هذه المعجزة اشبه بمعجزة تحويل نار ابرهيم الى برد وسلام (حسبما يقول القرآن) فاذا كانت معجزة رفع عيسى الى السماء بدون القاء شبهه على غيره لا تناسب لبلوغها حد الالجاء فكيف اذ ذلك ناسب معجزة تحويل نار ابراهيم الى برد وسلام التي الجأت قومه الكفار الى الكف عنه وكيف ناسبت معجزات موسى في مصر لكف المصريين عن ايذاء بني اسرائيل والجاء فرعون الى تخلية سبيلهم اذاً قوله «فانه تعالى لو رفعه الى السماء وما القى شبهه على الغير لبلغت تلك المعجزة الى حد الالجاء» هو لقول عبث وليس فيه شبه الدفع لذلك الاشكال وما اوهن واسقم كلامه كجواب عن الاشكال . الرابع ان حضرته بذلك الجواب يحكم بصدق واخلاص تلاميذ المسيح بقوله «ان تلاميذ عيسى كانوا حاضرين وكانوا عالمين بكيفية الواقعة وهم كانوا يزيلون ذلك التلبيس» يعني انهم كانوا يقولون للقوم ان الشخص المصلوب والمقتول ليس هو عيسى بل شبيهاً به القى الله شبه عيسى عليه وكان

ذلك بحضورنا وعلمنا ذلك لعمرك من اغرب التهم والافك فمتى واين قال تلاميذ المسيح مثل هذا القول وما البيان على ذلك

فيا ايها الامام ومن قال بقوله ان تلاميذ المسيح الاطهار ليس فقط انهم لم يقولوا شيئاً مما تذكرون بل هم كتبوا بوحي الروح القدس في انجيل سيدهم المسيح بتفصيل وبيان خبر صلبه وقتله من اليهود بسلطة الحكومة الرومانية ثم قيامته وصعوده الى السماء القصة التي هي محور كرازتهم باسمه كما ترى ذلك في الاناجيل ان أردت .

اذاً ما تقدم من الامام لم يؤثر في قوة الاشكالات المذكورة وانا ازيد عليها بان القاء شبه عيسى على غيره حتى يوهم انه هو عيسى فلا يشك اليهود بكون المقتول منهم هو عيسى هو محض غش وكذب وذلك محال في الله المنزه عن الكذب واذا لم تسم هذا الامر غشاً وكذباً فماذا تسميه

اما الجواب عن الاشكال الخامس وهو الطعن بالتواتر فهذا قد دحضناه في ملاحظتنا على الآية السالفة كما قد ابان زيفه غيرنا من اهل العلم والانصاف فلينظر في محله وجه ١١١و١١٢و١١٣

(النكتة الثالثة) تخاص الامام الوهمي والغريب الشكل من هذه الاشكالات المكيدة بنوع الدور الباطل عند عموم المتكلمين بقوله وبالجملة فالاسئلة التي ذكروها تتطرق الاحتمالات اليها من بعض الوجوه ولما ثبت بالمعجز القاطع صدق محمد صلى الله عليه وسلم في كل ما اخبر عنه امتنع صيرورة هذه الاسئلة المحتملة معارضة للنص القاطع والله ولي الهداية (وجه ١٣٢) فانظر ان الامام اذ رأى وهن اجوبته وكونها ليست حلاً لتلك الاشكالات وان قيام تلك الاشكالات هبوط للاسلام احوجته الضرورة رغماً عن حكم تعقله ان يلجأ الى قول ما قال فاشبه بذلك على قول المثل (هرب من الدب فوقع في الجب)

فاقول ان القول بثبوت صدق محمد بالمعجز القاطع فهو دعوى بلا برهان كما سترى وهو اذا كانت هذه الاسئلة محتملة كما يقر الامام فهي معارضة لنص القرآن واذا كانت معارضة لنص القرآن يكون ذلك من وجوه عدم اعجازه

واذا تبين ان القرآن ليس بمعجز سقط القول بثبوت صدق محمد بالمعجز القاطع لان صدق محمد بادعائه النبوة متعلق حسب فكرهم على اعجاز القرآن الذي أتى به (راجع وجه ٧ ووجه ١٣) فاذا بطل اعجاز القرآن بطل كون محمد صادقاً في مدعاه فكيف جاز للامام ان يجعل الدعوى بثبوت صدق محمد مانعاً لصيرورة هذه الاشكالات المحتملة معارضة للنص ومحمد لا تقوم دعواه الا بثبوت النص . ثم اذا تبين ان القرآن ليس هو بالمعجز القاطع تتطرق الاحتمالات الى هذه الاسئلة المعارضة لنصه ولوجود النقيض فيه كما بين الآية التي نحن في صددها وبين ما قبلها (راجع وجه ١١٥) ولما فيه ايضاً من المناقضة والاختلاف والتكرار واللحن وايضاح الواضح كما ترى في الباب الاول من هذا الكتاب (انظر وجه ٤ فصاعداً) ولا يبقى لمحمد اساس لتصديق دعواه بالنبوة ولا في كل ما اخبر عنه . فيزول ثم المانع الذي اقامه الامام لصيرورة هذه الاسئلة المحتمله معارضة للنص. ثم نقول اذا كان حسب زعمه ان القرآن معجز قاطع فلا يكون فيه شيء ممكن معارضته ولا يكون له حاجة ان يسند بصدق محمد لانه اذا احتاج الى صدق محمد لمنع صيرورة تلك الاسئلة المحتملة معارضة لنصه فلا يكون معجزاً واذا لم يكن معجزاً (كما قد تبين) ولا معجزة لمحمد غيره عدم محمد البينة على صدق دعواه وما ظني بالامام يجهل هذه الامور الاولية واذا كان لا يجهلها فما باله ينزل نفسه منزلة الجاهل الغبي بالتجائه في مثل هذه الزحمة الى الدور الباطل وهو ان يقيم القرآن بياناً لصدق محمد ثم صدق محمد مانعاً لمعارضة القرآن بالاسئلة المحتملة الامر الساقط الاعتبار عند كل من له ذرة من العقل. أيعضد محمد بالقرآن ثم يعضد القرآن بمحمد وهو لا يجهل ان ذلك شائع البطلان

تذييل

ان حاصل ما اوردناه من الآيات وتأويلها في هذا الباب ان عيسى بن مريم امتاز عما سواه من المخلوقات بتسعة امور (الاول) كونه بدون اب (الثاني)

كونه كلمة من الله او كلمة الله (انظر وجه ٩٩ و١٠٤) (الثالث) كونه روحاً من الله (الرابع) كون اسمه المسيح (الخامس) كونه وجيهاً في الدنيا والآخرة (السادس) كونه كلم الناس وهو في المهد (السابع) خلقه حياً من لا حي (الثامن) قيامته من الموت (التاسع) رفعه حياً الى السماء وتأويل روحانيته ووجاهته روح من الله اي صدر من الله وانه سمي روحاً لانه كان يحيي الاموات والقلوب ووجاهته في الدنيا بسبب انه كان مبرأ من العيوب التي وصفه اليهود بها وفي الآخرة بسبب كثرة ثوابه وعلو درجته عند الله تعالى في الدنيا بسبب انه يستجاب دعاؤه ويحيي الموتى ويبرئ الاكمه والابرص وفي الآخرة انه يجعله شفيع ابناء امته المحقين . فياذا النيرة انظر أفاليس ان هذه الامتيازات الخاصة بعيسى تدل انه شخص عجيب غريب الطبيعة والمصدر لا يقاس به نبي ولا مرسل فهل بعد كل هذا يلام المسيحيون على ايمانهم بالمسيح حسب نص كتابهم انه ابن الله الحي . ثم لاجل تتمة الفائدة ببيان المشابهة والمقاربة الكلية بين نص القرآن والانجيل وضعنا الجدول ادناه

اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين قالت رب انى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون (سورة آل عمران آية ٤٤—٤٧)	وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله الى مدينة من الجليل اسمها ناصرة الى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم فدخل اليها الملاك وقال سلام لكِ ايتها المنعم عليها الرب معك مباركة انتِ في النساء . فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى ان تكون هذه التحية فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم لانك قد وجدتِ نعمة عند الله وها انتِ ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه

يسوع هذا يكون عظيماً وابن العلي يدعى ويعطيه الرب الاله كرسي داود ابيه ويملك على بيت يعقوب الى الابد ولا يكون لملكه نهاية . فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وانا لست اعرف رجلاً فاجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك لان القدوس المولود منك يدعى ابن الله (لو ١: ٢٦ — ٢٥)

يبشرك بكلمة منه

وكلمته القاها الى مريم (سورة النساء من آية ١٦٧)

(تأويلها) القاها الى مريم اوصلها اليها وحصلها فيها (انظر وجه ١٠٤ و١٠٥)

والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً (يو ١: ١٤)

عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد (رو ١: ٣)

وهو متسربل بثوب مغموس بدم ويدعى اسمه كلمة الله (رو ١٩: ١٣)

لان الاب نفسه يحبكم لانكم قد احببتموني وآمنتم اني من عند الله خرجت. خرجت من عند الآب وقد اتيت الى العالم (يو ١٦: ٢٧و٢٨) فقال لهم يسوع لو كان الله اباكم لكنتم تحبونني لاني خرجت من قبل الله واتيت. الحق الحق اقول لكم قبل ان يكون ابرهيم انا كائن (يو ٨: ٤٢ و٥٨)

وروح منه (النساء من آية ١٦٧)

(التأويل) وذو روح صدر منه (انظر وجه ١٠٤)

وقيل سمي روحاً لانه كان يحيي الاموات والقلوب (انظر وجه١٠٤) وصف انه روح لانه كان سبباً لحياة الخلق في اديانهم (انظر وجه ١٠٣)

قال لها يسوع انا هو القيامة والحياة من آمن بي ولو مات فسيحيا وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت الى الابد ... ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم لعازر هلم خارجاً فخرج الميت (يو ١١: ٢٥ و٤٣ و٤٤)

وجيهاً في الدنيا والآخرة

في الدنيا لانه كان مبرأ من العيوب التي وصفه اليهود بها وبسبب انه يستجاب دعاؤه الخ ...

مَن منكم يبكتني على خطية فان كنت اقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي (يو ٨: ٤٦) فخرج بيلاطس ايضاً خارجاً وقال لهم ها انا اخرجه اليكم لتعلموا اني لست اجد فيه علة واحدة (يو ١٩: ٤)

ورفع يسوع عينيه الى فوق وقال

وفي الاخرة بسبب انه يجعله شفيع ابناء امته المحقين (وجه ١٠٢)

من هو الذي يدين . المسيح هو الذي مات بالحري قام ايضاً الذي هو ايضاً عن يمين الله الذي ايضاً يشفع فينا (رو ٣: ٣٤)

اسمه المسيح (آل عمران من آية ٤٤)

انما المسيح عيسى بن مريم (النساء من آية ١٦٧)

انه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب (لو ٢: ١١) فاجاب سمعان بطرس وقال انت هو المسيح ابن الله الحي (مت ١٦: ١٥) ان الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه انتم رباً ومسيحاً (اع ٢: ٣٦) ولما ولد يسوع

من تأويل اسم المسيح «قال ابو عمر بن العلاء» المسيح الملك (انظر وجه ٩٩)

في بيت لحم اليهودية في ايام هيرودس الملك اذا مجوس من المشرق قد جاءوا الى اورشليم قائلين اين هو المولود ملك اليهود فاننا رأينا نجمه في المشرق واتينا لنسجد له ... فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم اين يولد المسيح فقالوا في بيت لحم اليهودية (متى ٢:١-٥)

واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيراً باذني (وجه ١٠٣)

ما دمت في العالم فانا نور العالم. قال هذا وتفل على الارض وصنع من التفل طيناً وطلى بالطين عيني الاعمى وقال له اذهب الى بركة سلوام واغتسل... فمضى واغتسل وأتى بصيراً (يو ٩:٥ و٦ و٧)

اذ قال الله ياعيسى اني متوفيك ورافعك اليّ (آل عمران آية ٥٢)

روي عن ابن عباس ومحمد بن اسحق انهما قالا متوفيك اي مميتك ثم اقامه الله ورفعه الى السماء. قال وهب توفي ثلاث ساعات ثم رفع الى السماء وقال محمد بن اسحق توفي سبع ساعات ثم احياه الله ورفعه الى السماء (انظر وجه ١١٥)

ولما صلبوه اقتسموا ثيابه مقترعين عليها ... فصرخ يسوع ايضاً بصوت عظيم واسلم الروح. وكانت الساعة الثالثة فصلبوه. فصرخ يسوع بصوت عظيم واسلم الروح. ونادى يسوع بصوت عظيم وقال يا ابتاه في يدك استودع روحي. ولما قال هذا اسلم الروح. واما يسوع فلما جاؤا اليه لم يكسروا ساقيه لانهم رأوه قد مات (مت ٢٧. ٣٥ و٥٠ ومر ١٥:٢٥ و٣٧ و٢٣:٤٦ ويو ١٩:٢٣)

فاني اعلم انكما تطلبان يسوع المصلوب. ليس هو ههنا لانه قام كما قال . انتن تطابن يسوع الناصري المصلوب.قد قام ليس هو ههنا . لماذا تطابن الحي بين الاموات ليس هو ههنا لكنه قام (مت ٢٨: ٥ و٦ ومر ١٦: ٦ ولو ٢٤: ٥ و٦)

واخرجهم خارجاً الى بيت عنيا ورفع يديه وباركهم. وفيما هو يباركهم انفرد عنهم واصعد الى السماء فسجدوا له ورجعوا الى اورشليم بفرح عظيم (لو ٢٤: ٥٠ و٥١ و٥٢)

لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لي شهوداً في اورشليم وفي كل اليهودية والسامرة والى اقصى الارض.ولما قال هذا ارتفع وهم ينظرون واخذته سحابة عن اعينهم وفيما كانوا يشخصون الى السماء وهو منطلق اذا رجلان قد وقفا بهم بلباس ابيض وقالا ايها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون الى السماء. ان يسوع هذا الذي ارتفع عنكم الى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً الى السماء.حينئذ رجعوا الى اورشليم من الجبل الذي يدعى جبل الزيتون الذي هو بالقرب من اورشليم على سفر سبت (اع ١: ٨—١٢)

فاسألك ايها القارئ العزيز اما وجدت المقاربة المعنوية والموافقة الجوهرية بين حقي الآيات في هذا الجدول ؟ اما رأيت فيهما من عظمة المسيح وسمو شأنه ما يسمو جداً عن مقام انبياء الله ومرسليه وان تفسير الآيات المدونة في هذا الباب وان لم تصب الغرض تماماً فقد قربت الذهن الى نقطة الصواب وان آيات الانجيل بخصوص المسيح هي كتفسيرية لامتيازاته القرآنية حال كونها هي الاصلية انما اه من التعصب الاعمى للدين الموروث كيف حال بين الحق والعقل فساوى بين الزكي والبليد ولا سبيل الى الاصلاح من هذا الفساد واستقامة هذا الاعوجاج الا برفع هذا التعصب وحسبان المرء نفسه كمولود جديد وغريب فريد يبتغي الحق من بابه والهدى من مصدره

الخاتمة

اذ قد بلغت بعونه تعالى نهاية المطلوب من استحضار شهادة القرآن لكتب انبياء الرحمن وما حوى من الدليل الصريح الى سر لاهوت المسيح اوجه كلام الاخلاص اليك ايها المسلم المخلص الدائب على القرآن الملازم المسجد الذي لا يهمك سوى مرضاته تعالى آملاً من حلمك ان تعيرني سمعك وتصغي الى ما سأبديه لفهمك ثم احكم فيه لنفسك واني لست هنا مكلم الرعاع السفلة المكتفين من الدين باسمه المجذوبين بحبائل العصبية والمغلولين بقيود الغباوة بل اياك ايها النبيل التقي اخص بكلامي واليك ابسط مقالي فها قد رأيت والحمد ما ادرجناه في هذا الكتيب من صرح الشهادة في قرآنك للكتاب التوراة والانجيل الكائن بيد طائفتي اليهود والنصارى وكيف اجمع اشهر علمائكم الراسخين على سلامته من التحريف والتبديل لبلوغه مبلغ التواتر في الشرق والغرب وعلى ان مراد الآيات كآية « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون » وآية « يحرفون الكلم عن مواضعه » الى نحو ذلك من الآيات المتقدمة انما هو تشويش الدلائل على السامع بالقاء الشبهات الباطلة ومنع غير السامع من الوصول الى تلك الدلائل ووضع الباطل موضع الصحيح تحريفاً باللسان لا بالكتاب كما في مسئلة يهود خيبر المتقدم ذكرها واذا عنّ لك لا سمح الله ما يعنّ للجهلاء ان التحريف اللفظي وقع في الكتاب بعد محمد والقرآن اقول ذلك لا يمكن البتة لاتساع دائرة التواتر ولكونه بيد كل فريق وشيعة من الفرق والشعب النصرانية باغتها الخاصة ولوقوف الاخصام لهم في المرصاد ولترصيع كتب المناظرة والمجادلة العديدة بآياته الامور التي لم تدع سبيلاً الى ذلك ولا محلاً لهذا الزعم.

واذا كان في اثناء نحو ستة قرون اي من عهد المسيح الى ظهور محمد لم يقع التواطوء على تحريفه أمكن وقوع ذلك فيما بعد . كلا . وقد علمت ارشدك الله عدم جواز الطعن في التواتر وان الطعن في التواتر يوجب الطعن على

ما قال علمائكم في نبوة محمد ونبوة عيسى بل في وجودهما ووجود سائر الانبياء (راجع وجه ٥٩ و١١٦ و١١٧ و١٢١) وهنا ارجوك الوقوف هنيهة وإعمال الفكرة فيما تقدم اذا كان الكتاب هكذا سليماً من شائبة التحريف والتبديل كما قد تبين لك فماذا يترتب عليك كانسان لا يروم سوى الحق الا وهو ان تسلم وتؤمن بصحة ما قد جاء فيه بخصوص عيسى المسيح كابن الله وموته بالجسد فداء عن الانسان. بلى. لان الاعتقاد بانزال الكتاب وسلامته موجب لقبول ما جاء فيه وكأني بك باعتياد ذلك في موقف الحيرة والربكة لا يسعك انكار سلامة الكتاب ولا كذا قضية هي غاية التوراة وروح النبوة ومفاد الانجيل ومن جهة اخرى ترى صعوبة التسليم بكذا مسئلة غاية في الغرابة ومنكرة من القرآن قد ربيت على انكارها والانفة منها واني لمستحس معك بهذا الانحصار والتضايق الذي قد يصيب كثيرين ممن يبلغون مثل هذه النقطة الخطيرة وهم شديدو التمسك بما ورثوه من اسلافهم من العقائد المنافية لها بيد اني ارجوك استغراق تأملك في ما تقدم في البابين الخامس والسادس ببصيرة خلت من شائبة الغرض والعصبية لعل بذلك تنقشع سحابة حيرتك وتحل عقدة ارتباكك فتخرج كمن نشط من عقال .

لا يخفى عليك ان البيت باساسه وكل بيت بلا اساس يدركه عاجل الخراب فما تقدم في الباب الخامس اساس راسخ لما ادرج في الباب السادس فكان هو أولى اولاً بالنظر . لقد رأيت حفظك الله في هذا الباب الاساسي امرين خطيرين (الاول) كون اسحق ويعقوب هما ابوا النسل المبارك لابراهيم (الثاني) اختصاصه تعالى ذلك النسل بالنبوة والكتاب أرأيت كيف ان اسحق ويعقوب هما هبة الله لابراهيم كانه لم يرزق سواهما حال كونهما مسبوقين باسمعيل وعيسو وانهما مع ابراهيم ابيهما اولي الايدي والابصار كأن لا سواهم في عصرهم ذو علم وعمل وان كل الآيات في هذا الباب دلت كما باصبع واحد على ان غاية الله العظمى هي في نسل اسحق ويعقوب ثم لقد رأيت هناك تقصير المفسرين عن بلوغ كنه الحقيقة البادية في تلك الآيات لانجذابهم بحبائل

التعصب الاعمى الذي كثيراً ما ورطتهم باوحال الركاكة والسخافة غير الحرية بذوي النبالة ومع ذلك كانوا في نقط كثيرة كما قد رأيت يضطرون رغماً عن اهوائهم الى المصادقة على نوع ما بتفضيل الله بني اسرائيل على العالمين واحياناً كانه على غير انتباه يرجع تأويلهم الى تأييد هذه الحقيقة. اما اولئك المفسرون فقد مضوا وايات القرآن هذه لم تزل هي هي ولا ريب ان الله ابقاها شاهدة لتفضيله تعالى نسل اسحق ويعقوب على العالمين بما قد اولاهم وخصهم من النبوة والكتاب ومن المعلوم ان الكتاب الموروث من الله تعالى لبني اسرائيل حسبما جاء في سورة المؤمن (آية ٥١) والمحفوظ منه على الدوام كما اعطي لهم يشتمل على ذلك الوعد الاسنى لكل من ابراهيم واسحق ويعقوب بدوره ان بنسلك تتبارك جميع قبائل الارض (راجع وجه ٧١) وهذا لا يصدق الا على المسيح فادي العالم نسل يعقوب المبارك الذي قد انبأت عنه انبياء الله واوسعوا في وصفه ومدحه كبركة الله للامم ونور للعالم وكلا الانجيل والقرآن على وفاق ان المسيح جاء بركة ورحمة للعالم. اما ما تقدم ذكره في الباب السادس الذي هو كحصن حصين شيد على ذلك الاساس هو البيان الجلي كون كلمة الله المبشر بها مريم هي ذات كائنة قبل حصولها في مريم وان هذه الذات التي هي من الله هي جوهر الهي حل في احشاء مريم وتأنس منها وهو علة كيان المسيح بدون اب وان ما جاء في القرآن من نسب المسيح وصفته ككلمة الله وروح منه ونوع ولادته الغريب واعماله العجيبة هي تلميح ذو شأن الى لاهوته العجيب. اما شراح القرآن المسلمون فقد اجمعوا على ابعاد عيسى عن حقيقة ذاته العجيبة المشار اليها في آياته والمعلنة في انجيل الله محاولين خفض سنا نسبه لتجريده من لاهوته الازلي بيد انه ليس من شأن العاقل الحر تقييد عقله بتأويل المأولين بل الجدير به استعمال بصيرته في فهم المعاني المؤدية اليها الالفاظ على الوجه الاقرب. وانت ترى ان من هؤلاء المأولين من قرب جداً الى نقطة المعنى الصحيح ومنهم من بعد عنه ومنهم من كان بين بين حال كونهم في تأويلهم الآيات كانوا كأنهم يحومون حول غاية واحدة وما هي الا انزال المسيح

كلمة الله وروحه منزلة بقيــة انبيائه ومرسله غير مراعين لما بتلك الآيات من امتيازاته النسبية وصفاته السنية التي طبعاً تخوله في ذهن العاقل المخلص مقاماً اسمى بما لا يقاس به مقام نبي او مرسل سواه لانه من البعيد ان العــاقل المدرك يرتوي بتأويلهم وهو يرى لعيسى مثل هذه الامتيازات العجيبة التي لم يحرزها سواه

فهل يجدر بتعقلك يا صاح بعد كل هــذا البيان اغماض بصيرتك النيرة بعصابة الغرض حتى لا ترى من خلال هــذه لآيات مجد ابن الله فان فعلت ذلك كنت لنفسك ظالماً ولله عاصياً

ثم لدى المقابلة ما بين آيات القرآن في هذا الباب وآيات الانجيل بخصوص المسيح يرى ولا بد نوعاً المصادقة والمواخاة اي ان القرآن يصادق على الانجيل في بعض خصائص المسيح واوصافه مصادقة تكاد تكون حرفية ويواخيه في البعض الاخر مواخاة معنوية كما قد رأيت فيما مر اما مصادقته للانجيــل من جهة المسيح فهي من حيث ولادته على خلاف العادة الطبيعية وعمله الآيات المعجزات كاحياء الميت وابراء الاكمه والابرص ووجاهته في الدارين. ومواخاته له فهي في نسبة المسيح لله وروح منه وهو يماثل نسبته في الانجيل لله ككلمة الله وابن الله فيرى كان الفرق واقع في التعبير والتسمية لا في الحقيقة والمعنى وهي في المكانين عجيبة تريك رفعة شأن هذا المنسوب فوق كل مخلوق . وزد على ذلك ان القرآن والحديث زادا الانجيل في وصف جلال المسيح . اما القرآن فينبئ انه كلم الناس في المهد وانه كان يخلق من الطين طيراً والحديث يقول يوم ولد المسيح نكست اصنام الدنيا وانه لا يولد ولد لادم الا ويمسه الشيطان حين ولادته فيصرخ مستهلاً من نخسة الشيطان الا عيسى بن مريم وامه وان ابليس خزاه الله حاول مساواته بباقي البشر من هذه الحيثية فارتد خاسياً لان جيش ملائكة الله أحاق بالطفــل المبارك ولم يدعه يقرب منه (انظر كتاب احياء علوم الدين للامام الغزالي مجلد ٣ وجه ٣٧) فياذا النيرة الا ترى ان هذا الشخص الممتاز هكذا عن كل البشر بكذا امتيازات غريبة

عجيبة هو لشخص عجيب ؟ الا تتخـذ ذلك دليلاً على سموه على كل مخـلوق .
ايدور في خلدك ويروق لعينيك انه بدون داع موجب وسبب خطـير صار
هكذا خرق الناموس الطبيعي بولادته من دون اب؟ اياتي الله كذا امراً عجيباً
لا داعي له ولا سبب يوجبه؟ كلا وحاشا. فما ذلك الداعي ياترى ؟ والقول مثله
مثل آدم كلاهما من دون اب ليس هو بجواب لهـذا السؤال فلا يروي غليلاً
لخلوه من بيان السبب الموجب للعروج عن المجرى الطبيعي اما الانسان الاول
فلا بد لكيانه من دون اب لكن المسيح اي سبب لكيانه بدون اب واي
ضرورة تدعو الى ذلك الا يجول في خاطرك لدى تبصرك في هذه الآيات انه
لا بد من علة كبيرة لشذوذ ولادة المسيح عن السنة الطبيعية المسنونة من
لدنه تعـالى وان اقتران ولادته هذه العجيبة مع نسبه السني وتسميته تشفان
عن سر خطير في شخص عيسى المسيح.الا يتوق قلبك حقاً للاطلاع على
ذلك السر واذا تقت الى ذلك فاين تجد بيانه افي القرآن . كلا . نعم ان القرآن
اراك شيئاً نفيساً من مجد المسيح لكنه لم يسفر لك عن بهـاء كماله ولا اراك
حقيقـة ذاته فكأنه بذلك اوصلك الى باب السر ولم يفتحه لك بل تركك
هناك تعاني لظى التحسر والشوق فهل يحسن بتعقلك الرضى والقناعة بهذه
النقطة الدالة على ما وراءها من عظـائم الامور . لو اخذ احد الرواة يقص
عليك قصة عجيبة واوصلك بحديثه الى نقطة تشف عما وراءها من الغرائب
وتوقف ثم عن الـكلام هل كنت ترضى منه ؟ الا يسوءك ذلك وتلح عليه
بتكملة القصة؟ واذا قال لك اني لا اعرف منهـا اكثر ممـا قصصت عليك الا
تسأله عمن روى ذلك او عن اي كتاب اخذ هذا الجزء واين هو واذا سمى
لك ذلك الكتاب ودلك على مكان وجوده الا تسعى جهدك للوصول اليه
والجد في احرازه ودراسته ولو كلفك ذلك خسارة ومشقة وهـذا لعمرك
عمل القرآن بخصوص عيسى المسيح فانه قص عليك من غرابته وصفته وعمله
ما اخذ معظمه من الانجيل وقطع عنك الكلام في اهم نقطة اي لم ينبئك عن
العلة والسبب لغرابة ولادته ولا عن سر نسبه واسمه وعجيب مقدرته وعلو

منزلته فكأنه اصعدك الى نصف البئر واوقفك هناك بحيث لم يعـد يصعدك ولا ينزلك غير انه لم يخل عليك بالدلالة على الكتاب الذي منه اخذ ما انبأكه وهو الانجيل الذي يريك تمة القصة ويسفر لك عن سر ما روي في القرآن عن ولادة المسيح ونسبه واهل الكتاب الذين أمر محمـد بسؤالهم لاراحة فكره ومحو الشك من قلبه (انظر وجه ٧٤ و٧٥)

ايها الحبيب اذا كنت هكذا مؤمناً بانزال هذه الآيات وترى انك ملتزماً ان تنظر الى مرادها واستخلاص مفادها مع ما قد علمت حفظك الله من سلامة التوراة والانجيل اللذين غايتهما ومفادهما ابن الله المتأنس وفادي الخطاة بدمه . وانك ولا بد رأيت بين تلك الآيات ونص الكتاب وفاقاً من جهة المسيح اعظم كثيراً مما بينها وبين تأويل مأوليها المذكورين فما عليك يا ترى والحالة هذه . أأن تقول حماك الله قول بعض البلداء المتغفلين الذين هربا من مقاربة النصرانية عندما تشع لهم من شفافة مثل هذه الآيات أنوار ابن الله «الله اعلم ما مراده بها» فيتلونها ولا يتدبرونها ظناً منهم انها مما لا سبيل لهم الى فهمها واستخراج دسم لبها كأنهم يتهمون المولى جل وعلا بوحي الى خلقه يستحيل عليهم فهمه او يحظر عليهم البحث في مراده او انك تعتبر المسيح ارفع قدراً واسمى شأناً من المخلوقات طراً وانك ملتزم لا محالة ذمة وحرمة لله ان تبادر الى كتابه وتطالعه بالخشية والمهابة مع الابتهال والضراعة لتعلم العلم الصحيح عن شخص عيسى المسيح وبعد هل يصدق انك بعد تدبرك القرآن لا يعرض لذهنك لدى التبصر في عظمة هذا الشخص المنفرد في نوع الولادة وغريب النسبة والصفة ما يعرض لكل لبيب نبيه على سبيل السؤال التعجبي ان تقول من يا ترى يكون هذا الشخص حتى وجب الحبل به من دون اب ولم يكن لابليس سبيل اليه . من يكون هذا المدعو في القرآن كلمة الله وروح منه وفي السنة روح الله (الامام الغزالي جزء ٢ وجه ٣٥٩ وجزء ثالث وجه ١٢٦) وأي شيء ليت شعري أعظم من روح الله . من يكون هـذا الناطق في المهد . من يكون هذا المقتدر على احياء الاموات والقلوب حسب

تأويل البيضاوي (مجلد اول وجه ٣١٩) (يعني الاجساد والارواح) ومن يستطيع ذلك سوى ربك القدير او روحه القدوس من يكون هذا الخالق حياً من جامد (طيراً من طين) أليس ذلك عمل الله في خلق آدم من يكون هذا الذي لم يذكر له عيب ولا اثم وليس له في القرآن استغفار ما ولا ان الله تاب عليه او غفر له كما ذكر عما سواه من مشاهير الانبياء . من يكون هذا الذي لم يستطع الموت ان يضبطه ولم يكن للفساد سبيل اليه بل قام على قول ابن وهب بعد توفيه بثلاث ساعات وعلى قول محمد ابن اسحق بعد توفيه بسبع ساعات ورفع الى الله بنفسه وجسده (انظر وجه ١١٥) من يكون هذا الذي سوف يأتي ايضاً ويقتل الدجال ويهلك بدعائه جيوش آجوج وماجوج (انظر حديث مسلم جزء خامس وجه ٤١٤—٤١٧) من يكون هذا الذي لم يحفل بالدنيا بل عاش عزباً وكان آية العفاف والطهر ولم يقاوم الشر بل عاش محسناً صفوحاً خيراً موصياً بحب الاعداء وبالاحسان للمسيء وبدعاء الخير للمضطهد الباغي وبابداء الخير والمعروف للعموم اشراراً وصالحين ألا انه فوق البشر جنساً ورتبة اغرب ما ظهر وأعجب ما بدا من البشر . من من الانبياء اجتمعت فيه هذه الصفات وامتاز بهذه النسبة او ظهر على هذه الكيفية أو نهج هذا المنهج . لا احد. فهل هو من مقتضيات العقل اعتباره بعد كل هذه الامور مجرد انسان او كاحد الانبياء والمرسلين . كلا . أالله يرفعه وانت تخفضه ايدعوه كلمته وابنه (وحسب القرآن وروحه) ويدل على سناء هذا النسبة والمنسوب بما أولاه من قدرة الخلق واحياء الاجساد والقلوب وانت تنزلة منزلة عبد مرسل الا ان ذلك مقاومة لوحي الله وتنزيله وما جزاء من يقاوم الله

ثم ارجوك ان ترد طرفك قليلاً الى فاتحة قرآنك وانعم النظر انعم الله بالك في القول «واهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» وابحث عقلاً ونقلاً في مراد هذا النص فبموجب البحث العقلي الحر ترى ولا بد ان الصراط المطلوب الهداية اليه هو سبيل عبيد الله الاولين من انبيائه واوليائه الذين انعم الله به عليهم سبيل الايمان بالله جرثومة

كل صلاح وتقوى. ومن المعلوم المقرر ان بعض هؤلاء كان قبل بني اسرائيل كنوح وابرهيم واسحق ويعقوب واكثرهم من بني اسرائيل الذين اعطاهم الله كتابه وان شئت فقل صراطه او سبيله وهو يوافق الآية « يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين » (سورة البقرة آية ٤٤) كيف لا وقد اعطاهم كتابه وكثر منهم الانبياء حتى اقام منهم سيد الانبياء والمرسلين مسيح الله كلمته وابنه الوحيد (وحسب القرآن وروح منه)

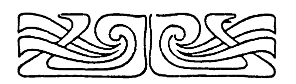
اما بموجب البحث النقلي فانك تجد في المجلد الاول للامام الفخر الرازي تأويلاً متنوعاً لهذا النص من عدة مصادر قال ان لتأويل هذه الآية وجوهاً (نأتي ببعضها على سبيل الايجاز) (الوجه الاول) ان الصراط المستقيم هو تحمل المشاق العظيمة لاجل مرضاته تعالى ويعضد ذلك بحكاية عن نوح انه كان يضرب في كل يوم كذا مرات بحيث يخشى عليه وكان يقول في كل مرة اللهم اهد قومي (الوجه الثاني) هو المعدل في الامور او الخط المتوسط بين الافراط والتفريط في كل الاخلاق وفي كل الاعمال (الوجه الثالث) معناه في اهدنا الصراط المستقيم عرفنا يا الهنا ما في كل شيء من كيفية دلالته على ذاتك وصفاتك (الوجه الرابع) اهدنا صراط من انعمت عليهم من المتقدمين المحقين المحسنين للجنة. . . وهم الانبياء والصالحون وان نعمة الله على اولئك هي نعمة الايمان فرجح حاصل القول في قوله اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم انه طلب نعمة الايمان اه . فحاصل ما تقدم ان محمداً امر بطلب الهداية الى ايمان وسيرة المتقدمين من انبياء الله واتقيائه ومن المعلوم ان اصول ايمان اولئك القدماء المنعم عليهم من الله هي مدونة في اسفار الكتاب المقدس المنسوبة اليهم كاسفار موسى وصموئيل وداود واشعياء وارميا وغيرهم من رجال العهد القديم واسفار الانجيل فقد تبين اذا بجلاء من كلا البحثين في مراد الآية المذكورة ان الصراط المستقيم الذي امر محمد وتابعوه بطلب الهداية اليه هو الكتاب المقدس صراط الذين انعم الله عليهم من الانبياء والابرار السالفين وهو يوافق تماماً نص الآية. ولقد آتينا موسى الهدى واورثنا بني اسرائيل الكتاب

هدىً وذكرى لاولي الالباب(والآية) ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي احسن وتفصيلاً لـكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون (الانعام آية ١٥٣) وهنا اسألك ازال هذا الصراط صراط الانبياء السالفين ام هو باق فان كان قد زال فطلب الهداية الى ما قد زال عبث وان كان باقياً فأين هو أليس هو عند اهله اليهود والنصارى المأمور محمد بسؤالهم لازالة ريبه واي فرق بين القول وقل للذين اوتوا الكتاب (آل عمران آية ١٨) او بين الذين اوتوا الصراط لان الصراط في الآية يراد به حسبما تقدم معرفة الله او الايمان به بحسب حق ذاته وصفاته وهو السبيل الى الله وجنته وهذا هو مضمون الكتاب الذي هو هدىً وذكرى لاولي الالباب فان كان هذا الصراط المستقيم كتاب العزيز الرحمن الذي انزله على انبيائه ومرسليه الاقدمين واورثه لبني اسرائيل باقياً غير مثلوم كما قد تبين لك بالكفاية فيما تقدم في هذا الكتاب فما بالك تقتصر على طلب الهداية اليه دون ان تتخذه وتسير بموجبه اتطلب يا جائع الخبز والخبز امامك ولا تتناوله او تطلب النور للهدى والنور لديك ولا تسير به وهل من العقل طلب المرء الهداية الى ما يظن انه في غنى عنه

واخيراً اقول لقد رأيت ايها القارئ العزيز ان محمداً لم يأت بمعجزة ما برهاناً لدعواه انه نبي الله ورسوله وماكان يعد له معجزة وهو القرآن ظهر لدى البحث والتنقيب انه ليس بمعجزة وانه باعتبار دعواه كنبي الله ورسوله لم يرسل مكرهاً الناس الى الدين ولا مجازياً المعرضين عن قبول دعواه بطريقة ما بل فقط مبشراً ونذيراً عليه البلاغ وعلى الله الحساب وان مسألة الناسخ والمنسوخ حسبما دوّنَ في الباب الثالث هي غاية في التناقض والاشكال البعيد وقوعه عن الله والمنافية لحكم العقل السليم فيا ايها المسلم ألا ترى انه باعتبار الآيات القرآنية الواردة في هذه الابواب الثلاثة لا برهان لصحة دعوى محمد بالنبوة والرسالة على انه يرى ان الخطة التي سلكها باعتبار رئيس امة هي خطة تشف عن حذق غريب وذكاء مفرط لملائمتها الزمان والمكان وان ما ورد في الابواب الاخيرة هو من امتن الشهادات وأحسنها لصحة الدين

المسيحي المرسوم في كتاب الله هذا وانت تعلم يا عزيز اني لم اسلك في هذا التأليف مسلك التحيل المعيب المتسبب عن الغرض الجنسي وحب الانتصار وبقدر امكاني تجنبت الغلو في الكلام ولم يكن قصدي في بادئ الامر سوى الوقوف على آراء علماء الاسلام الاولين من جهة مراد مثل هذه الآيات التي كنت اتأمل فيها زماناً باوفر اندهاش وحيرة ولما ان رأيت ان جل تلك الآراء يوافق صراحة تلك الآيات ومفادها البديهي اعتمدت على ضمها وترتيبها مع خلاصة تأويلها وملاحظات عليها كما قد رأيت في هذا المؤلف بحيث يستطيع المسلم وغير المسلم ان يقف باوفر سهولة وأخصر وقت على اهم قضايا القرآن المتعلقة بالكتاب (التوراة والانجيل) والدين المسيحي

واني اعتقد اني في تأليفي هذه القضايا المهمة على هذا الاسلوب قد خدمت أهل الاخلاص والتقى من المسلمين أحسن خدمة تمكن لمثلي ومن المعلوم ان أحسن الادوية النافعة لاعادة الصحة قد تنبذ وتطرح من ذوي الجهالة حال كونهم باشد الحاجة اليها على ان اهل الذكاء والنبالة يقدرون الشيء حق قدره ناظرين الى ما يقال لا الى من قال فاسأله تعالى ان يجعل هذا الكتاب موضوع تأمل ذوي التعقل ووسيلة التنبه الى ما هو حق وصالح لعباده وان يعمهم بهداه ورشاده له الحمد والاكرام الآن وعلى الدوام آمين



فهرس الكتاب





WATER AND LIFE ● VIRGINIA ● UNITED STATES

http://www.waterandlife.net